حقائب الرحلة الاخيرة

أَحمد عارف

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020//)

813.03
العائلة، إسم الكاتب
إسم الكتاب / الإسم كاملاً – عمان: الرواية العربية للنشر والتوزيع،
2020
( ) ص ،
ر.أ. : 2020// ،
الواصفات: /النصوص الأدبية //النثر العربي//العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced. Stored in retrieval system. Or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

تصميم داخلي وتنسيق:
م. عمران أبو مرشد
+962795515073

الرواية العربية
للنشر والتوزيع

إِلى أُمّي و أَبي وإِخْوتي

وزَوْجتي

شركاء الحياة .

الإهداء

أُهدي هذه الرواية لأولئك الذين يرون أنفسهم هناك بعيداً تحت أقواس النّصر ، وعلى أعلى منصات وخشبات المجد ، الذين يبكون وتقشعرّ جلودهم حينما يُذكر اسمهم من ضمن الفائزين ،الذين يؤمنون بأنّهم يستطيعون ، والذين يكملون طريقهم بلا خوفٍ وتردّد ، دون مبالاة بالصّعوبات وبالمكائد.

للذين يغضبون عند تعرضّهم للإساءة وينسون كلّ شيءٍ عند أول اعتذار للنّاس الذين لديهم الجرأة الكافية للاعتراف بالخطأ، للذين ليس في قلوبهم مساحةٌ سوداء ، القابلين والقانعين بالشّيء القليل والزهيد ،الرّاضين بقدرالله وزرقه ، والذين يرون في الغد فرجاً وعيداً.

أمّا الذين أفلتوا الحبل خوفاً منهم أن نصل قبلهم للقمّة ، الذين وثِقنا بهم ذات يوم وباعوا عند الغفلة كلَّ العهود ، الذين يتألّمون

حين يروننا نختال بالفرح ونصعد درجات النّجاح ، الذين أُسقطت أقنعتهم عند أوّل اصطدام ، والذين يهرولون وراء زينة الدّنيا بلا شبع ، فلا إهداء لهم ولا عليهم سلام.

قد نعتقد نحن الذين مرَرنا بتجربة حبٍّ بذلنا فيها خلاصة الوقت والحلم الكبير، واستنفذنا فيها عُصارة روحنا المرحة، أنّنا أصبحنا عاجزين عن الثّأر لكلّ شيءٍ فقدناه ، ثمّ أبحرنا برحلةٍ خر افيةٍحيث الرّيح والمدى البعيد.

قد نعتقد أنّنا أضعنا شركاء الماضي ورفقاء الأيام السّعيدة ، قد يخيّل لنا أنّنا قد نسينا أسماءهم وملامح وجوههم ، إلّاأنّ الدّنيا قد تثبت لنا مع مرور الوقت خلاف ذلك ، قد نجد بين أوراق ذاك الزّمان بوصلةً تحدّدُ لنا الوجهةَ بعد ضياعها ومصباحاً يضيءُ لنا عتمات الطّريق.

قد يمنحنا الزّمن فرصةً ذهبيةً واحدةً لا يكونُ فيها أيّة قيمةٍ للحسابات والخسارة ، تتساوى فيها كلّ الأثمان ويتصاغر ويضمحلّ فيها شعور الخوف.

لحظةٌ واحدةٌ نقتل فيها كلَّ الذين تسبّبوا بذبح أحلامنا مهما تغيّرت العناوين ، نجتثّهم من الدّماغ والمخّ كالمرض الخبيث ، نضرب بيدٍ حازمة ، ونردّ الصفعةَ التي تلقّيناها صفعات.

تتدفّق الدّماء إلى وجوهنا ويرويها كما يروي المطرُ الصحراءَ القاحلة ، قد نستطيع بالكلمات والبوحأن نتخلّص من ندبات أنيابهم ، أوأن نمنحهم قلادة الخلود للبقاء الأبديّ داخل الرّوح .

لم تكن مسألة البَدء بكتابة هذه الكلمات التي توثّق قصّة العودة الأخيرة واللّقاء الأخير للحديث عن حبٍّدارت وقائعهُمنذُ وقتٍ بعيد ، والتي جاءت على شكل مجموعةٍ من الخواطر المترابطة في حين والمنفصلة لحد ما في أحيان أخرى ؛ شيئاً سهلاً وبسيطاً أبداً.

إنّها محاولاتٌ متواضعةٌ لوضعِ تعريفٍ للحبّ والحزن وفتح حقائب الأيّام ورسم صورةٍ زيتيةٍ لزمن الفرح العظيم.

إنّ فتحَ المذكّرةِ من جديد أمرٌمخيفٌ ومتعب ،وإعادةُ الكشف عن مفكّرة المراهقة الخجولة ، ورفع الغطاء عن أيام الزّمن الماضي ؛أمرٌجريءٌ جداً كمظلومٍ أعزل يواجهُ الظّالم بالحقيقة دون تفكير.

الكتابةُ في بعض الأحيان كالمرايا التي نرى فيها أنفسنا على الحقيقة ، إنّها الانعكاسُ الحقيقيّ لوجوهنا السّعيدةِ والمريضة وعيوننا المتورّمة ، والرّجوع الأخيرلكلّ شيءٍ مات ، إنّها قرارٌأخيرٌ بالرّحمةِ والعفو ، أو فعلُ قَتْل ، شيءٌ أشبه بأطلاق رصاصاتٍ من النّارعلى كل شيءٍ حيّ.

إنّنا نكتب لكيلا نختنق بالأسى والدّمع ، كي نملئ صدرنا بشيئا من الهواء الطبيعي بعد زمن طويل من استنشاق الهواء المصنوع والابخرة كي لا يظلَّ الضَّميرُ يوقظنا كلَّ ليلة من النّومِ كمنبّهٍ مسعور، لكيلا نستمرَّ في العيش بين سجون الحياة وحو افرها ، ولكيلا نستيقظ كلَّ يوم مبلَّلين بالدُّموع المالحة ، لكي نظلّ دوماً على موعدٍ مع رائحة الأماكن وعطرِ تراب الأرض.

نعودُ لنكتب لكي نستطيعَ إعادةَ القصصِ إلى بدايتها ، إلى لحظات ولادتها الأولى كي نضع الضّوء من جديدٍ على تلك البقعة المعتمة ، كي لا يظل هنالك ما نخاف أو نهرب منه ، ولكي نفرُغ من غربتنا ونعود كما كنّا سابقاً أحراراً .

نعود لمسافة ما قبلِ التلوّن والكذب ، نوثّق تلك اللّيالي التي نِمنا فيها خائبين وخاسرين ، واللّسانَ الذي يعيد لنا المو اقف ، ليتسنّى لنا أن نقول ما أردنا أن نقول ، نوضّح للجميع كيف بتنا بعد أن عدنا من دفن صديقٍ أوقريب ،نصنع أحداثاً

أخرى ونغيّر ترتيب الأماكن والأحداث ، ونقرأُ من جديد بوعيٍ أوراقَ الحياة.

نلغي بعض الأدوار ونُقصي أصحاب البطولة ، ونعطي لأولئك الأشخاصِ المجهولين فرصةً أخرى ومكاناً أوسع ، نضعُ قواعدَ غير التي نحيا بها ، ونرجع بالآلة الورقيةِ للزَّمن القديم ، نفعل ما اقتنعنا به دون حسابِ غضبِ الآخرين، لا نُجبر أنفسنا على التأقلم مع أشخاصٍ كشفت نوائبُ الأيام مقصدهمُ السَّيّء،ومعدنهمُ الدّنيء، نقولُ كلَّ ما بقيَ في النَّفْس ، ونقطع بالسّيف أيدي العابثين.

نجلس أمام انفسنا بلا أقنعةٍ اجتهدنا دائماً أن نخفي خلفها هشاشتنا وضعفنا أمام الآخرين ، شيءٌ أشبهُ بالتَّعرّي والبوح والإفصاح عن ماضٍ لطالما حاولنا إخفاءه و إنكاره.

غادرَ كلُّ زملائي الصّحفيّين والكتّاب المكتبَ يومها بعد انقضاء ساعات العمل ، أمّا أنا وبلا وعيٍ بقيت بين كمٍ كبيرٍ من الأوراق والنّصوص الأدبيّة والروائيّة حتّى ساعات أول اللّيل ،

خرجتُ بعدها مع صديقٍ أخّرَتْهُ بعض الأعمال مثلي لشراء بعض الحاجات وشُربِ كوبٍ من القهوة ،وجلسنا في مقهىً بعد أن سرِنا بضع كيلو مترات.

جلسنا شيئاً من الوقت حدّثني فيه ذاك الصّديق عن غربته الطّويلة وسنواته هنا وشؤونهِ وشجونه ، وصارحني أنّه أصبح يكبر و أنه يفكّر منذ أيّامٍ بالعودة للوطن ، كان طوال الجلسة يستعير شفتيّ ولساني يستخدم مفرداتي ويصفُ مشاعري، كان يبحر بداخلي ، وينبش الرّماد العالق في رئتاي ويبكي مثلي لكلّ شيءٍ هناك.

لم يُخْفِ يومها شيئاً ، قال كلَّ ما كنتُأخاف قوله أو أن أواجهَ ذاتي به بشجاعة ، كلَّ ما كنت أحاول تجاهله وتجاهل وجوده ، كنتُأشعرُ بنفسي كخيلٍغاضبة ، كنت كالأمّ التي شعرت بحركاتِ

ونغزاتِ الجنين ، لم أتحدّثْ يومها كثيراً ،أتعبَني الكلام الذي دار بيني وبين نفسي اللّوامة ،وصرت ألتفُّ حول نفسي وأسألها كأمٍّ تعاقب ابنها وتعاتبه.

ما الأمر... لماذا تُراني أفكّر كثيراً بما قاله ذلك الصّديق ، هل انتقلَتْإليَّ بهذه السرعة عدوى الحنين ،هل حقاًأكون أنا الذي يريد أن أعود.

ودّعْتُ صديقي وعدْتُ سيراً أكلّمُ نفسي وأحاورها وأسألها وتسألني وتجيبني وأجيب ، الشوارع تكاد تخلو من الحركة والسيارات ، والثّلوج تغطّي المباني والمنازل ، والنّاس يتكوّمون حول المدافىء.

عدْتُ إلى غرفتي في ذلك الفندق الكبير في الثّالثة صباحاً أضمُّ يدي حول يدي وألتفّ حول مدفأتي ، عدْتُ متعباً من هذا

المشوار الطّويل الذي قضيْتهُ على أقدامي بين شوارع هذه المدينة العملاقة.

المدينة التي تآكَلَتْ فيها ببطء العديد من السّنين ،اللحظاتُ التي يعود فيها القمر إلى بيته وقبل أن تنشر الشّمسُ شراعها الذّهبي كسنابل القمح، اللّحظات التي يبدأ فيها الصّبح بالنُّهوض وبالتّنفّس.

كيف يمكنني أن أنام وسْط هذا الفراغ والوحدة ، كيف يمكن لعيني أن تنعم مع هذا بنومٍ لذيذ، أنا الذي كنت أخاف النّوم في بيتنا القديم وحدي على إنارةٍ خافتة ، كنت دوماً أشعل التلفازَ و أترك شيئاً من الضّوء حتّى الصّباح.

رميْت وشاحي الشّتوي ومعطفي وأضأت كل الأنوار ، أشعلتُ موسيقى لطيفة وصنعت كوباً آخرَ من القهوة ، كنت أحاول دون

جدوى إسكاتَ صوت الوحدة المزعج، أشعلتُ سيجارةً ووقفتُ طويلاً أمام النّافذةِ أستنشقُ بتوتّرونهم سحائب الدّخان.

أجول بعينين صامتتين للمرّةِ الأخيرةِبهذه المدينة و أنفاقها ومبانيها والمشاةِ والمارّة ،كما يتجوّلُ الماء بين البرك والقنوات،عشرُسنين مرّت عليَّ هنا و أنا أعيشُ بين هذه الشوارع والأزقّة الموحشة، عشر سنين في هذه المدينة الكرتونيّةِ المادّيةِ التي لا ليس بها نفسٌ ولا روح.

بقيت على هذا الحال أشعلت سيجارةً تَبِعَتْها أُخريات و أنا أحدّق بكلّتلك التّفاصيل ، لم أنَم طِوالَ تلك اللّيلة حتّى طُلوع الشّمس ،كنت كالطّفل الذي وضع ملابسه النّظيفةِ تحت رأسه وظَلّ طوال اللّيل يفكّركم سيجمع من نهار العيد.

كان الهواء قوياً في تلك اللّيلة ، الشّبابيك الموصدة بإحكام ما كان لها أن تصمُد في وجه ضربات الرياح القاسية ،كنتُأتمدَّدُ على أريكتي في منتصف الغرفة بغطاءٍ خفيفٍ أرْقبُ مجيء النّهار.

ما أطول اللّيل حين تكونُ وحيداً، ما أطوله حين يكون الحنينُ والخوفُ جُلَساءَكَ فيه ونُدماءَك، تتمدّد أنفاسُه ويكبر ويصبح انبعاث الشّمس والضّوء أمنيةً ورجاء.

ليلٌ ووحدةٌ وظلمةٌ وغربةٌ وشتاء ،يصحو الماضي النّائم على صدري والوطن النّائم فتصبح غرفتي كأنّها متحف شمعٍ استيقظتْ فيه تماثيله من جديد.

السّاعة السّادسة صباحاً، شيءٌ من النَّوم المتقطّع ،جلستْ بعد ما تقلّبتُ على كل الجهات واستعذت منوسواوس الشّيطان ، من الصّباحات التي شاهدتُ بدقّةٍ تفاصيلها الكثيرة ، العمر يمتدُّ ويأخذُ نَفَساًأعمق حينما يعيش المراحل التي تمرّ بها ولادة الشّمس.

بملابسي التي عليّ دون حقائب ولا أوراق ، بالذّاكرة المتعبة قرّرتأن أعود،شعرتُ أنّ هذا الرّجوع سوف يكون الأخير مع الحبِّ والوطن.

إنّنا نرحل حينما يصبح كل شيءٍ حولنا ذو شكلٍ ثابتٍ وواحدٍ كأوراق الشّجر ، وحين نعود نعود حتّى لا نُدفَن وحيدين ، ففي الوطن يموت معنا كل شيء.

العودةُ إلى حضن الأيام القديمة ، عودةُ المسافر المُرهَقِمن كلّ المؤانئ والفنادق، عودةُ الكاتب الذي رمى أوراقَه وقبّعته وملابسه الأنيقة في أحضان قريته وكلِّحضارات الهجرة وتقدّمها وكتبها وجرائدها.

أستيقظ منذ الفجر كفلاحٍنشيط ، أحمل زوّادتي ومأونتي وفأسي وأحمل سلال الفواكه وأركض بين البساتين ،أعودبلهفةٍكأنّني

قبسٌ من برقٍأو موج، وأهبِط مثل الحمام في كلّ بيت وأعودكالأسماك إلى مياه البحر.

كان لا بدّ من العودة من ذلك الطّريقالمليء بالوحل والوعْر والحجارة ، خياران لم يكن أحدهما أقلَّ رعباً ومرارةً من الآخر ، إمّا أن تظلَّ حبيس الغربة وسجونها ومدنها الضّجرة الموحِشة ، وإمّا أن تواجه بكلّ ما بقي من شجاعةٍوجنونٍسياطَ الذّكريات، كنتُ كالذي يسير بكلّ تجلدٍ وتصلبٍنحو الموت.

وأعترف بأني طوال تلك الأيام التي قضيتها هنا كنت خوّافا جدّاً ، و أنّني دفنتُ رأسي في الرّمالِ طويلاً ، أعترف بأني اختبئت طويلاً خلفَ حماقاتي وأعذاري ، و أنّي خلعتُ رداء الأرض التي كنت أنتمي بذاكرتي وجسمي إليها وفتّشتُ عن نفسي وعن لغتي في كلِّ القارّات ولم أجد شيئا.

و أني أحرقتُ كلَ المكاتيب التي كانت تصلني من الوطن ، و أنّي هربتُ من كلّ المو اقف والمواجهات ،أعترف بكلّ هذا و أكثر بكلّ

لياقتي وقيافتي ورجولتي وشهامتي المتبقيّةِ أمام الناس وأمام الله ، ولكنّني قرّرتُ اليوم أنأعود وأرتطم بكلّ ما هو مرعب.

أوّلُ مشهدٍ تصوّرهُ لك عيناكَ عند وصولك أرضَ الوطن ، يشبهُ عالماً سحرياً بأكمله بألعابه ونجومه وأطفاله وعرائسه ،شيءٌ لا يمكن للحروف وللكتابة وصفَه بكلامٍ بسيط ،لا بدّ لك أن تختار أفخم العبارات و أفصحها لساناً وبيانا.

تشعر حينما يصبح المطار خلفَك والغربة خلفَك ويبدأ الوطن الكبير بشوارعه ومآذانه وصحاريه وأشجاره بالظّهور، كأنك عالِمُ تنقيبٍ و آثار عثر بعد بحث طويل على تمثالِ المَلِك أو على جوهرةٍ أسطورية.

كل صور الالبومات العتيقة التي وثقتها الكاميرات البدائية المستأجرة ، التي لم يكن لدينا القدرة المادية على شرائها في ذلك

الوقت حاضرة في مياه ذاكرتي حينما كان لذاكرتي في ذلك الزمن رداء ووجه انيق.

ساعات الصباح الاولى في تلك الايام القديمة وشكل عيون الناس تنام كل ليلة في عيوني كشريط فيلم قديم حينما كانت عيوني تبصر كل شي ، حينما كان المساء في الصيف كعارضة ازياء ذات خصر منحوت ووجه واسع ،في تلك الايام التي كان فيها جسدي كالبحر يفيض بالحب والماء.

الوطن كلُّه يستقبلني عند وصولي ، يحمل اسمي في ورقةٍ بيضاء وينادي بين النّاس عليّ ، يُوقف لي سيارة أجرة ويركب معي ويتحدّث لي طوال الطّريق عن كل شيءٍ حدث في غَيبتي ، وعن المباني التي بُنيت والحدائق التي هُدمت ويذكّرني بأسماء الأحياء والشوارع ، ثم يحمل لي حقيبتي عني عند الوصول ويحدّد معي موعداً لاحقاً ويتركني أرتاح.

أواجهُ عند أوّل خطواتي على الأرض كلَّ تلكَ الأشياء، يبدأ حينما أدخل مدينتنا زِفاف الشعر والأقمار والماء والخيل ، كلُّ تلك الشّؤون الصّغيرة التي قاسمتْنا الآمال والدّرب الطّويل.

أخلع عنّي ثياب اللّباقة والتّجهّم ، شيءٌ ما يجبرني أن أشرح تفاصيل الأحداث وأسباب تلك النّهاية ، أجد نفسي مجبراً على الإبتعاد والكَذِب عن ذِكر الحقيقة ، كلُّ تلك الطّرق التي داستْها خطواتنا ذات يومٍ تواجهني الآن،كلُّ مبنىً دخلناه بزواياه ومقاعده وشخوصه يرمقني بنظراتٍ متسائلةٍ تطلب أجوبةً كافيةً ومقنعه.

إنّه أمرٌ صعبٌ بل قد يكون من أنواع المستحيل أن تعود مرّةً أُخرى للكتابة عن أيامٍ أصبحت الآن في ملْكِ ونصيب الغياب، إنّه أمرٌ خطيرٌ أن تعودَ لفتح صندوقك السّرّيّ وصورك العتيقة وإعادةِ تقليب روزنامةِ الأيام ، وإعادة التّنقيب عن مخلفات و آثار عهد الحبّ البائد،إنّه أمرٌ أشبه باللّعبِ بالقنابل والمتفجرات، والسباحة في المياه العميقة.

من الأشياء الكئيبة أيضاً الدّخولُ في حالة وضْعِ الأحرف الأولى وترتيب الأحداث ووصف الأماكن والتّفكير بالأجوبة ،أمرٌ ثقيلٌ جدّاً على النّفس إعادةُ النّبش في البدايات والرّجوع بالخيال إلى أول الطّريق ، أمرٌ صعبٌجدّاً حَصْرُكلّ التّفاصيل ، واسترجاعُ كلّ تلك الذّكريات في لحظات قصيرة من الزّمن.

أركب الباص العائد للقرية وأجلس في المقعد الأول، يقف في منتصف الطّريق ، يصعد عدداً من النّاس وطلبة الجامعات ، أتذكّر ذاتي حينما كنت طالباً كيف كنت أحمل كتبي ، ثم أهرول نحو أي باصٍ يمرّ بالقرب من البيت، فأزاحم المارّين والمنتظرين بكتفيّ ويديّ حتى أكون من الرّابحين بحجز مقعد.

تنجح محاولاتي مرّةً وتبوءُ بالفشل مرات ، وحينما كنت أفشل كنت أجد نفسي مجبراً على أكمال الطريق سيراً حتى يمنّ علي كنترول رحيمٍأو سائقٌ ما بحاجةٍ لملئ كرسيٍ أخير.

كنتُ أصلُ غالباً متأخّراً ويهاتفني الطّلاب بأنّ عليّأن أكون خلال أقلّ من خمس دقائق داخل قاعة الدّرس فأُسرع بالخطوات و أقفزعن السلالم والدّرج كعدّاءٍ افريقيٍ سريع ، وأشرح للأستاذِ عند الدّخول ظرفي القاسي ومعاناتي في الوصول فيرأفُ بي ويسمح لي بأن أكون من قائمة الحاضرين.

أنظرُ في ساعتي عشرين مرةًخلال المحاضرة ، يبدأ عدّاد التّوتّر بالتّحرّك وأخاف أنأتأخّرعن وقت بدء العمل وحينما كنت أكمل محاضراتي المسائيّة أُسرع نحو إحدى البوّابات كأنّي قطارأنفاقٍ حديث.

أضعُ يدي وأسجّل بصمتي عند دخولي مكانَ العمل و أبدأُ بتغيير ملابسي ، لتبدأَ بعدَ قليلٍ محاضرةٌأطولُ من سابقتها من صاحب العمل في مبادئ العمل وضرورةِ احترام الوقت والقوانين.

أبدأ بعدها بالعمل بنفسٍ غاضبةٍ متذمّرة، وحين كنت أُنهي عملي عند السّاعة الواحدة من منتصف اللّيل أهمّ سريعاً بتغيير ملابسي للعودة للبيت كأنّي حطام سفينةٍ قديم.

يقف الباص على مثلّث قريتنا ، أصحو حين يظهر لي من بعيدٍ بيتنا الصّغير في وسط البلد وبيتُجدّي القديم من غيبوبتي وخيالي ، منذ اللّحظات الأولى وحين تصطدم عيوني بأوّل الوجوه الباسمة والمتعبة أدرك حقاٍكم من حياةٍ أضَعْتُ حينما رحلْتُ عن الوطن.

أعود مرةً أُخرى من مدن الهجرة والغربة لأتّحدث لكم بشوقٍ عن تلك القصّة التي بدأتْ قبل عصر الإنترنت والرّسائل الصّوتيّة و -الو اتساب - بوقتٍ طويل ، مرحلةُ الأحلام العملاقة والمشاريع الطَّموحة، المرحلة التي تسبق مرحلةَ كشفِ الحقائق وقَبْل ضياعَالفرص.

الأيّامُ التي كان فيها الحزنُ مشاركة والسعادةُ مشاركة والدموعُ والشقاء والأرضُ بخيرها وزرعها مشاركة،كلُّشيءٍ كان مناصفةً كرغيف الخبز الذي يتقاسمه الفلّاحون ،أوّلُ الأيّام التي تعرّفْتُ فيها على شكل الأرض والسّواقي والرّوابي وبركةِ القمح.

حينما كان جدّي يصحبنيإلى أرضه في أقصى طرف القرية ليتأكّد من خياطة الأكياس المليئة بالعدس والإشراف على الحمل وتوصيله لبيت تخزين الحبوب ، حينما كان ما يزال قويّاً يستقيظ قبل الفجر يصلّي ثمّ يكمل وِرده اليوميّ ويقرأ بعض آياتٍ من القرآن ، ثمّ يُعِدُّ شئياً من الطّعام وينادي عليّ ، ويضعُ في جيبي شيئاً من المال قبل خروجي ، ويتأكّد من أنّني لم أنسَ محفظتي وأوراقي الثّبوتيّة الرّسميّة ، ثم يبدأ بتذكيري بأنّ عليَّ أنْ أبقى دائماً ذو مظهرٍ جيّد ومنطقٍ مفهوم ، ثمّ يبدأُ حين يراني أبتعد بالدّعاء.

حينما كان يطلّ علينا كلّ يومٍ بثوبه الأزرق الدّاكن وشماغِه الأحمر يحمل الصّينية الفضيّة البيضاء وكاساتٍ زجاجيّةً من

الشّاي وسكريّةً خضراء ، وذلك البسكويت المكوّن من العسل والكيك ، كما يطلّ علينا الفجر كلّ صباح.

الأيّام التي كان كلّ شيءٍ فيها يُكتَب ويؤرَّخ، الرّحلات المدرسيّة ومواسم الحصيدة الشّاقّة و شوالاتُ القمح ومنظرُوأغاني الحصّادين ،تستطيع أن تستعرض كلّ شيء، لكلِّ شيءٍ رقمٌ كدليل الهاتف ، كلُّ شيءٍ في تلك الأيّام يَصلح لتأليف كتابٍ كاملٍ عنه،جغرافيا البيوت والحارات الملتصقة ببعضها كشجرة الياسمسن وعشيّاتو يوميّات النّاس على البيادر.

أستحضر بحنينٍ وشوقٍ وجه خالي- طايل- بلحيته التي يغطّيها الشّيب ووبدلته الأنيقة ، ذلك الإنسان الذي أتْعَبَتْه الغربة والوحدة والمطارات ، والذي تقاسْمتُ معه ذات يومٍ نقوده وعشاءه ولياليه ونمت بجانبه في سرير.

كلُّ شيءٍ عالَمٌ كاملٌ لوحده ، بوّابات البيوت الثقيلة والكبيرة ، دفاتر زيتية و اقلامٌ للرّسم وللكتابة ، آخِر الأيّام التي وقفتْ فيها بيوت الأجداد القديمة بكبرياء ، آخر الأيّام التي سمعنا بها عن قصصهم وشقاوتهم ونزواتهم الشّبابيّة ، ذلك الجيل المبارك الذي لم يترك ورائه سوى بعض الحروف والقصائد.

حينما كانت جدّتي لا تزال بكامل قوّتها وشبابها ، تزور كلّ يومٍ قنّ الدّجاج الخاص بهاوتطعمهنّ ، ثم تحلب أغنامها وتصنع منها لبناً وجبناً ، وتأخذ عدداً قليلاًمن البيض البلديّ وتعدّ لنا الغداء.

حينما كان خالي الأصغر–خازر-يختار كلّ ليلةٍبدلاته المتنوّعة وربطات العنق المملوءة بالأزهار وبالورود ،ويخرج مع كلّ صباح كقارورة عطر فاخرةٍ وكعصفورٍأنيق ، وحين كنتُ وأخوتي نسهر كلّ ليلةٍ في صالون البيت الكبيرعلى التّلفاز القديم ، وننام كلّليلةٍ في منتصف أحداث الأفلام، حينما كانت فيروزتشاركنا السّاعات الأولى من كلّ صباح ، وتلامذة الحيّوالصّبايا الصّغيرات أولى

الوجوه التي تواجهك عند بدء أولى خطواتك نحو المدرسة أوالجامعة.

والأشياء الكثيرة التي ليس لها وصفٌ ولا تعريف ،أيّامُالخبز السّاخن والقلب السّاخن وخوابي الماء، الطّرق التي يملأ جوانبها أشجار الورد واللّوز والمباني الطينيّة الباردة والمآذن العالية الجليلة والدّكاكين الصّغيرة.

في تلك القرية التي تشبُهنا، فيها من ملامحنا،فيها شيءٌ من رائحة رسائل بريد الغرام، والتي تشبه فيها عيون بناتنا وجه الشّمس عند الغياب، ومواسمَ الحنطة ومهرجانات قطف الزّيتون وأعراس الحقول.

قبل أن تقتحم الحياةُ الرماديةُ الباهتةأسوار بيوتنا ، قبل أن تُحوّل التكنولوجيا الإنسان إلى أرقام ، وقبل أن يتحوّلالحبُّبمعانيه إلى أرقام والنّاسُ والأصحابُ إلى أرقام،بدأت

أيامها الأولى حينما كان الحبُّ ما يزال بدائيّاً بكلّ شيء ، آخرُ الأوقات التي كان فيها لكلّ شيءٍ ملامحه وعنوانه الخاص ، لكلّ شيءٍ عنفوانه وغموضه.

كانت الرّسائل الورقية ما تزال تحتفظ بماءها البارد وهوائها الرّطب ،كان للإنتظار نكهته الخاصة رغم مرارته ،حينما كان الحبُّ وردةً وورقةً حمراءَ ملونةً وحلم،حينما كان هناك نوافذ مفتوحةً للنّور وللطّيور وللشّمس.

حينما كان الحبّيجري بين النّاس كما يجري الماء بين الحقول يحمل رائحة التّفاح والبرتقال والبساتين لكلّ البيوت ،كما يجري الأطفال وراء بعضهم بين البيوت .حينما كان الحبّ ركناً أصيلاً من أركان البيت ، مدفأةٌ في مضافاتنا ، ديوانُ شعرٍفي سهراتنا ، شيءٌ من الضّوء في السّراج الذي ينير الشّوارع والسّاحات.

حينما كان كلّ سكّان قريتنا يعيشون بحبّ يتمشّطون به ويتنفّسون ويرتدونه معطفا في الشّتاء ومروحةً باردةً في الصّيف ، في ذلك الزّمان المليئ بالفرح والمر اييل الزّرقاء،حينما كان لكلّ شيءٍ سرّه وعوالمه المخفيّة ، حينما كان الوقت يمرّبشكلٍ بطيئٍ ولذيذ.

وقَعتْ أحداث هذه القصّة على ارض التعب العذب والانتظار، في آخروقتٍ كان فيه إيمانٌ من النّاس بالورق ، في آخر زمنٍ كانت فيه كلّ الأشياء كما هي بتركيبها وتكوينها الطّبيعي ، قبل أن تتشوّه العاداتُ والأقلام ، قبل المسمّيات المزدوجة وظهور العواطف المصطنعة، وحينما كان لكلّ يومٍ لونُه ولكل فصلٍ من فصول العام كونُه الغريب وشكلُه المختلف.

كانت فيه البيوت متلاصقةً والقلوب متلاصقة، بدأتْ وقائعها في عصر النّقاشات الطّويلة والاستنتاجات الكئيبة والتحليل والجدال، آخرُ أيام السّهرات العائلية والمسلسلات الأردنيّة التي

تحكي تراث الأجداد الطّيّبين بدأت عند انتهاء آخر سلالات النّدى وماء الورد، بدأتْ في آخر أيّام البساطة والخجل الجميل.

الوقت الذي لم تكن بعدُ فيه وسائل الإتصال الحديثة قد غيّرت الأصوات وغلّفت المشاعر والقلوب، كانت بعدُ غير قادرةً على وضع الأصوات واللّفتات والنّظرات في كبسولةٍ إلكترونيّة ، حينما كانت الحياة ما تزال بكلّ تفاصيلها بسيطة.

لقد كنّا من المحظوظين والقليلين الذين جرّبوا كلَّ شؤون الحبّ قبل دخول التّكنولوجيا ،آخرَ عشّاق عصر النّثر والشّعر والأدب، كو اقفين على حدود آخِر هذا العالم كآخر الكلمات ونهايات القصائد.

أدخل منزل العائلة القديم ، تعود بي طاحونة البنّ الخاصّة بأمّي إلى مراحل طفولتي الأولى ، تحوّلني مخدات أمّي القديمة

وشراشفها إلى عطرٍشتائيّ ورذاذ ماء ، أدخلغرفة أبي ألمس نظّارته و أفتح قرآنه وأخبّىء في جيبي عدداً من أقلامه ودواةَ حبر.

أدخل غرفتي في منتصف البيت أجلس على طاولتي الخشبية الصّغيرة و أفتح نافذتي ، أتذكر يومَكتبت أوّل قصيدةِ شعرٍ في أوّل قصّة عشقٍ مراهِقة ، هنا قرأتُ دواوين نزار قبّاني ومحمود درويش، وذاكرت دروسي المدرسيّة وراجعتُ محاضراتي الجامعيّة وكتبتُ هنا أوّل محاولة نثر.

أستعرض أسماءَ الأصدقاء القدامى الذين أبعدَتْهم ظروف الحياة ، الأصدقاء الذين لعِبنا معهم وتشاركنا مشاريع الطّفولة والمراهقة ،أفتح ألبوم صور الماضي فأجده بحالةٍ شديدةٍ من الحزن والبكاء ، أقلّبه صورة صورة ، فصورةٌ وثقت لحظات نجاح قديمٍ وفرح ،وصورةٌ احتفظت بملامح الأحبة الذين غيّبهم الموت والقدر.

أشعر حينها بالوحدة والخوف ، تغمرني حالةٌ من الكآبة كأنّي بيت عائلةٍكبيرٍ رحل عنه الأهل وغابت عنه السّهرات الكبيرة ، كدمعةٍعلى مراكب المسافرين ، أفتح خزانتي المليئة بكل أدوات الطّفولة والورق والهدايا البسيطة ، أفتح صندوق جدّي الأبيض المليئ بالمواعيد وبالجرائد وقواشين الأرض الرّسمية والكتب.

إرثٌ كبيرٌ من مذكّرات اليوميّات تركها جدّي خلفه أرّخَتْ كلّ مواقف ولحظاتِ حياته ،إنّها هواياةٌ لا أعرف من أين جاءت ولا أعرف كيف أتقنتُها ومنذ متى وُلِدَتْ معي ، إنّها هواية العودةُ لتركةِ الأيّام القديمة وقضاءِ وقتٍ طويلٍ بين دروسها وشخوصها الرّاحلين ،

هنا وُلدنا ووُلد معَنا الشّعروالأدب ، لَعِبَ ورَاهَق ثمّأكملَ دراستهُ وأحبّ فتاةً في الجامعة وحين تخرّج تزوّجَها و استأْجر شقّةً صغيرةوملْلَمَأوراقه بنفسه ورحل.

أنفضُ عن ثيابي غُبار الزَّمان القديم وأخرجُ من سردابه الطّويل ، ثمّ تأخذني أقدامي المُتعبة نحو جامعة اليرموك ، المكانِ الذي فقدنا فيه شيئاً كثيراً من العمر.

أمرّ من أمام المحكمة المقابلة للجامعة وكاتبي الاستدعاءت، من أمام عربات التّرمس والفول والقهوة العربيّة السّوداء ،أدخل الجامعة بخطواتٍ خائفة ، ذلك المكان المَهيب والمقدّس، أدخلها من بوّابتها الشّرقيّةأسلّم على أشجار الزّيتون المزروع بين الكليّاتتخرج المقاعد والأكشاك المُطْعمةُبرائحةِالهال وتقبّل رأسي ويديّ، ثمّ تأْتي أعدادٌ هائلةٌ من الطّلبة ويحفون بي يغنّون لي ويحملونني ثمّ يسيرون معيكعريسٍ جديد.

تلتمّ حولي أسراب الحمام الجامعيّ ونجلس كالأصدقاء بصحن الكلّيّة الواسع ونتجاذب أطراف الحديث ، فتُخْبرني الحمائم عن نفسها أيْن صارتْ وماذا اشتغلتْ وكيف تزوجتْ وكم مرّة أحبّت ، وتخرج القطط النّظيفة من كلّ مكانٍ وتلعبَ معي قليلاً ثمّ تسألني عن أخباري وأخبارعائلتي وأخوتي.

أعود إلى زمن البرق الحقيقيّ والولادة الحقيقيّة والقصيدة المتوحّشة ،زمن الأحداث المباغتة والحبلى بكلّ غريب ، أعود إلى السّاحات التي امتلأت ذات يومٍ بالخطابات والكلمات وبالهتاف

أعود فأجلس وحيداً على طاولة الكفتيريا المقابلة لكليّة الآداب ، و أتامّل بحنينٍ وشوق وجوه الطّلّاب والطّالبات،أشتري من المكتبة المحاذية للعمادة عدداً من الأقلام والأوراق وأخطّ بالدّمع أولى الخواطر.

أتجوّل بين الدّفاتر والمحابر و آلات الطّباعة والدّوسيّات البلاستيكيّة والورقيّة، أصعد درجات مسجد -الشّيخ نوح القضاة- ،أشعر و أنا أمرّ بمكتبته ومصاحفه وحلقات طلّابه ومحرابه الأخضر أنّني رحّالةٌأو مستكشفٌ من جامعةٍأجنبيّة ، أتوضّأ وأصلّي صلاة الظّهر، و أتلو حزباً من القرآن.

أعود وقلبي يحمل أكواماً من الحزنوجُيوبي مليئةٌ بالورد والرّيحان ،أدخل حدائق اليرموك المليئةِ بالزّيتون، ألمس بيدي كلّ الأشجاروأطمئنّ على كلّ السلالات الوليدة.

أعود مرةً أخرى لعهد المحبّة والنّقاء إلى زاويتي التي تشكّلتْ ملامح شخصيّتي الأولى بها،-المكتبة الحسينيّة - ، البيتُ الكبير الذي قرأتُ فيه أوّل كتاب، أفتح درج الذّاكرة المقفول منذ وقتٍ طويل و أتجوّل بين الزّوايا والمكاتب والرّفوف.

أبحثُ عن مخطوطتي الأولى ، تقابلني المراجع السّمينة بالعيون الضّاحكة، أقطف أجمل أبيات الشّعراء الجاهليّين ، أسمع صوت موسيقى الفهارسيتجلّىأمامي أبطال الملاحم والمعارك وملوك المملكات البائدة بزينتهم وصولجاناتهم وتيجانهم الذّهبيّة وتختال حولي ملكات وجميلات الزّمان القديم بكل أدوات ومستحضرات الجمال.

أجول بكامل حريّتي بين الحقول والبساتين أشربُ بيديّ من ماء الجداول والأنهار وأصعد برشاقةٍأعلى الأسوار والمآذان، ويضيع في المكتبة الحسينية اسمي وأوراقي واسم عائلتيوأصبح روايةً شرقيّة وكتاباً قديماً في التّاريخ وعلم الكلام.

تلك المكتبة ذات هندسةٍ مختلفةٍ عن المكتباتتعيش فيها كلّ الحضارات متجاورةً متحابّةً تلك المكتبة كانت بمثابة المحارة الصّغيرة التي كنت أختبى فيها من حرّ الصّيف وجنون الشّتاء إنّها كبيوتنا العتيقة الأكثر إجلالاً وبركة.

هنا بين هذه الشوارع والمباني القديمة ، تعلّمنا لأوّل مرّة جغر افياوجمالَ الحرف والأدب و أتقنّا نقْش الجُمل ، ودخلْنا من خلال أبوابها السّرّية والخلفيّة حجرات السّحروعالم العشق

.

هنا حيث أحببْنا لأوّل مرّة ، ونجحنا وانهزمنا لأوّل مرّة ،هنا حيث انطلقت أصو اتنا ونبتَتْ لحناجرنا حناجرُأخرى وورودٌ من المكان الذي بدأتْ فيه أولى البطولات الغراميّة، وسقطتْ على أرضه أوّل دمعةٍ بريئةٍمكابرة وواجهنا بهشاشةٍ فيه أوّل انكسار.

وُلدت هذه القصّة هنا في ذات المكان و انتهت أيضاً فيه ، حيث دخلنا عالم العشق المليئ بتلك الأسرار، وحيث قر أنا أوّل رو اية

حبّ وتصفّحنا بنَهمٍ صفحاتِ أوّل كتاب، وحيث انتابتنا لأوّل مرّةٍ رَعشةُ الأصابع الخجولة المراهِقة، وتشابكَت الأيادي وتلعثمتْ بالكلام بأوّل لقاءٍ غراميٍّ سريع ، وتنشّقنا رائحةَ الرّسائلِ الورقيّةِ ساعاتٍ طِوال بانتظار صدفةٍ قد تجيئ وقد لا تجيئ.

من هناك حيث كنّا غرباء حيث بدأْنا غرباء وانتهتْ بنا الأيّام غرباءَ دون أن يعني لأيّ منّا أمرُ الآخر ، وانتهتْتلك الأيّام أعداءَأعداء ، وألدَّألدِ الخُصوم.

أعود إلى تلك الطّرق التي ساقتْنا الأقدارُإليها ، أعود إلى حَيث الحارات والشّوارع الضّيّقة التي تتسلّل كالأطفال بين الأحياء - الإربدية- الجميلة والمباني البيضاء الرّخاميّة، ومن بين شجر الياسمين الساكنِ على أعلى أكتاف المضافات العتيقة وسقوف البيوت ، تنطلق لتعلن وِلادة قصّةٍ حزينةٍ ليست الوحيدة ولكنّها قد تكونُ الأكثرَدمويّةً وغزارة.

كلُّ شيءٍ حينها كان واضحاً ومشرقاً بلا زَيف أو تشويه، كنّا نملك حينها كلّ شي ، الوقت والأحلام والطّريق والظّروف ، كان كلُّ شيءٍ في بدايته ، كلّ شيءٍ في طَوْر الطّفولة ومراحلها الأولى ، القلوبُ كانت في شبابها ، والدّماء التي تسير في العروق كانت في عزّ درجات الحرارة و الغليان.

والرّبيعُ كان منطلقاً بين السّهول كحصانٍ عربيٍّ مجنون، كنّا نحاول التّعرّفَ على كلّ شيءٍ ونُعيد تفكيك وتركيب كلّ شيء ، كنّا نبحثُ عن أجوبةٍ كثيرةٌ تلبّي وتَسقي فضولَنا كنّا أبرياءَ وساذجون وبسطاءَ جدّاً.

كيف يمكن لها أن تبدأ حكايتُنا ، وما الذي يفضَّل ذكره عند الكتابة عن النّهايات والخيبات ، هل يرجع الإنسان لأعوام الحبّ التي خلت ليبدأ بسرد أيّامها وتفاصيلها ومشاهدها أم يحاول اختصار كلّ هذا النزيف للضّرورة الأدبيّة والصّحّيّة ويبدأُ من حيث المشهد الأخير.

تفاصيلٌ كثيرةٌ لم تكن حاضرةً تقاسِمُنا اليوم وجعَ الخيانة ، تبكي لنا وعلينا حزينة، تلك الزّوايا التي كانت لأعوامٍ طوال المملكة الصّغيرة التي أصبحنا نمرّبها بتجاهلٍ وخوف ما تلبث أن تنادي عليك وتمسك بك كطفلٍ صغير.

العام 2005 ، كان الوقت شتاء ، إحدى صباحات تشرين المتململة الكسولة ، أبخرة المداخن تتجوّل بحذرٍ كالسُحُب بين البيوت الدّافئة ، والمطريلبس معطفه وةوشاحه ويحمل حقائبه ويسافربين برك الماء والشّوارع والحارات.

وكان الموعد في ذلك المقهى الزّجاجي الكبير، يواجهك في خطواتك الأولى أثناء الدّخول سحبٌ من البهارات الكثيفة والهال ، وتسمع رنين دِلال القهوة السّاخنة وطاسات التّمروعرق السّوس الهندي، وتشعروأنت تنظرلسقفه المفتوح أنك تُبحر مع الّليل وأسراب النّجوم.

كان الّلقاء الأوّل هنا تأخرتُ يومها فلم أعرف ماذا أرتدي وماذا يمكن أن أحمل معي، وتساءلت في نفسي ماذا يحمل العاشق في يده أثناء لقاءه الأول وكيف تُراه يبدأ بالحديث ، يومها أصطفّ الحديث حين رأيتكِتدخلين دفعةً واحدةً من خلف ذاك الباب البلّوري الشّفّاف فتبخّرت الحروف وتلاشت في ثوانٍ قليلةٍ كل الجمل.

كان اللّقاء الأوّل ، لم نرتّب له وقتاً ولم نضع له نهايةًأوحداً،كان كلّ ما يحدث من ترتيبات الأيّام والأقدار، لقاءٌإوّل سوف يترتّب بسببه لقاءاتٌ كثيرةٌ وقرارات، لقاءٌلم يكن لنا في ترتيبِ شؤونه يدٌ ولا جهد ، قصيرٌ في مقاييس الوقت والزّمن و أبديٌّجداًفي مقاييس الرّوح والقلب والخيال.

لقاءٌ وليدٌ تلاه أفراحٌ وأعراس ، كلّ شيءٍ في طور الولادة والانبعاث، ومع مرورالأيام والسّنوات لم يفقد ذاك الحبّألَقَه ولا لذّته ولم تستطع العيون الحاسدة والقلوب البغيظة وذوو النّفوس الضّعيفة إفسادَه ،كلّ شيءٍ يزداد جمالاً و أناقةً مع كلّ يومٍ وكل ساعة حبّ ، كان بإمكانه أن يتجدّد ويتطوّر من تلقاء ذاته.

اللّقاءُ الأوّل كالحبّ الأوّل وكاللّمسة الأولى له قدسيّة وجمالٌ وشؤون ، إنّه من قائمة الأشياء التي لا تُنسى ولا تفقد مع السنين نكهتها ولا تستطيع أن تاتي بمثلها الأيّام ، تظلّ ندباته محفورةً في

الرّوح والقلب كجرح المقاتل ، يحتفظ بلذّته كالرّحلة الطّويلة نحو الحلم والنجاح.

إنّها اللّحظات الأولى التي تمارس فيها النّفس كلّ شيء بطبيعتها البسيطة ، نمارس فيها سذاجتنا و اندفاعنا ، نقع في الخطا الصّغير دون خوف ، نقول كلّ شيءٍ دون ارتداء الأقنعة وتقمّص شخصيّاتٍ أو أدوار أخرى ، كنّا وقتها نحبّ بصدق ونكره حينما نضطرّ بصدق ، كنّا بعيدين عن رياح الإفتراس والبشاعة والتَّشويه التي اجتاحت النّاس والعالم.

ومضت بضع ساعات ، وقفنا بعدها للانصراف ، كنّا نودّع بعضنا بالصّمت وحركات العيون ، سرنا سويّا حتى باب ذاك المكان بلا كلمات ، واختار كلٌّ منّا بعد ذلك طريقه.

عدت يومها مثقلاً بالتفاصيل ، شعرت بأنني شعاعٌأو شيءٌ من الضّوء كنتُ سعيداً جداً وخائفاً جداً ،إنّنا نخاف حين يعترض

حياتنا العاديّة أمراً مختلفٌوغريبٌ قد يحوّلها لرحلةٍ بحريّةٍأو سجنٍكبير ، نخاف حين نشاهد تحوّل الحلم إلى حقيقة ،و حين نحلم ، ونخاف حين نصحو من الأحلام.

كلّنا يملك بداخلنا مطالبَ عملاقة تظلّ تر افقنا طوال الطّريق ، كلّنا يحمل أحلاما متعفّنة وميتة قتَلَتْها الظّروف القاسية والو اقع الضّيق ، تستطيع أن تراها في ارتجاف اليد وفي السّواد السّاكن تحت العيون ، كلّنا ساهمنا بقتلها لم نقاتل لأجلها لم نتمسك بها ، كلّنا تنازلنا عنها عند أوّل معركة حقيقيّة وجلسنا نبكي كالصّغار.

ومرّت سنينٌ خمس.....

قبل النّهاية فقدتُ الإتّصال بها لعدّة أيّام دون أن يكون هناك سببٌ ما أو مشكلة ، كانت الأجواء باردةً ، و كان كلّ شيءٍ يومها عاديّاً جداً وهادئ ، لم يكن هناك أيّة دلالات أو علاماتٍ تدعو للخوف والرّيبة ، أو إنّه الهدوء الذي يدعو للإضطراب ، جاء الخبر من أحد الأشخاص المجهولين.

رنّ الهاتف مساءَ ذاك اليوم مرّاتٍ عديدة من أرقام مختلفة ، شيءٌ جعلني أخاف واضطرب.

رفعت السمّاعة لم أتكلّم ، بدأ الطّرف الآخر بالحديث.

كان صوتاً نسائيّاً خفيفا: ليس مهمّا أن أعرّفك على هويّتي ، أنا أحد الأشخاص الذين لم ألتقي بك مطلقاً ولم يجمعني بك موقف أو حدث.

قلت :ليس لديّ فضول المعرفة وليست من هواياتي تعقّب الأشخاص والبحث عنهم.

ردّت بأستغراب وتردّد:

لقد اختارتني لأنقل لك هذا الخبر لا أعرف لماذا اختارتني أنا واختارني القدر، ولسْتُ أعرفُ كيف قَبِلْت ،

إنّها من أصعب المهامّ و أثقل الرّسائل.

لقد سألْتُ عنك وعرفت أنّك شخصٌ على قدرٍ جيّد من الثّقافة والوداعة والوعْي ، وتُدرك أنّ كل أمور الحياة تسير بقدرٍ وتدبير.

كانت تختبر قُواي ، تعبث بكلماتها النّاعمة بأعصابي ، كالذي يفتّش بقسوةٍ بيديه بين الأضلاع عن الجروح.

أدْركتُ عندها حقيقة كلّ شئ ، كنت كالذي زاره الطّيف فعرف وأدرك الأسرار.

قالت: لقد خافتْأن تواجهك ، كنتُ معها في الأيّام التي غابت فيها عنك ، كانتْ مرعوبة وخائفة ، لقد بكَتْ طوال الليل ولم تنم ساعةً واحدة.

لقد سافرَتْ لبلدٍ بعيد بعد أن عقدتْ قرانها أوّل البارحة.

قبل أن أسأل ، و أنا في عزّ حالات التبرّم والتجمّد.

أُغلق الهاتف و انتهى الأمر ،

انتهى الأمر هكذا بكلّ بساطة.

هاتفٌ لا يحمل رقماً من شخصٍ مجهولٍ لم أستطع تحديد ملامحه أو إدراك شيءٍ عنه ، لا شيء مؤكدٌ حتّى اللّحظة ، كلّ شيءٍ ما زال غامضاً، وكلّ شيءٍ يدعو للشّك ، ولكنّني أيقنت وقتها أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى ،عرفتُ حينها أنّها الحقيقة ، الحقيقة المخيفة.

بقيت هادئاً وصامتاً لدقائق ، كنت من أولئك الأشخاص الذين يقبلون الأشياء ناقصة ، كانت الأشياء التّامة تخيفني ، كل شيءٍ يبدو مشوّشاً ومظلماً ، ولا سبيل إلى فهم أيّشيء ولا أدنى قدرةٍ على التّفسير.

لم أحاول تقصّي صاحب الخبر ولا حتّى معرفة غايته ، كنت أخاف من اكتمال الأحداث ومعرفتها ، لم أكن أرغب في معرفة التّفاصيل التي كانت تدبّر في الظّلام ولا معرفة ما الذي جرى ولماذا و ما الدّافع الذي كان يقف خلفه.

كلُّ شيءٍ تغيّر فجأة، كلّ شيءٍ يختفي فجأة، الوجوه والأرقام والرسائل والكلمات ، لم أجد وقتها شيئاً منها ، كلِّ شيءٍ تنصّل منّي وهرب ، كلّ الأشياء التي كانت تحيط فقدت للحظة حدّتها وحضورها ، كلمةُ مواساةٍ واحدة كانت كافيةً لتفجير دموعي، سؤالٌ واحد كان قادراً على تبديد تجلّدي و إفقادي عزائمي ، تلاشت الذّكريات ، تلاشت الصّور والدّروب والعناوين.

كلّ شيءٍ كشفنا عنه سره الغامض في البداية ، كلّ ما يمكن اعتباره التّجربة الأولى كلّ ما بدا مختلفا وجميلا ، اللّقاءات والحبّ والهديّة الأولى والقبلة الأولى المشاعر والأحاسيس البريئة.

كلّها تملك لذّتها ونكهتها وألوانها وعوالمها الخاصّة والغامضة ، ولكنّها ما تلبث أن تفقد كلّ ذلك حينما تتحوّل الدّنيا من عالم الخيال إلى العالم المادّي، كلّه يتشوّه وينمسخ حتّى نفقد الإحساس به وبوجوده.

إنها لحظاتٌ من الحزن النادر الذي يمرّ بالعمر مرّةً واحدةًفقط ، أخذْت حينها ورقة وقلماً ووقفْتُأمام نافذتي ، أبدوا صلباًبعض الشيء، جلستُ بعد خطواتٍ قصيرة، لم أستطع الوقوف طويلاً كلّ شيءٍ بداخلي يهتزّ، وبدأتُأكتب،أردتُبشدةٍ توثيق تلك اللّحظات الفريدة.

كان لتلك اللّحظات طقوسها ومراسمها ،في العمر لحظاتٌ وموا قف لا تملك إلا أن تجعل لها طقوساً ومراسم ، تتغيّر فيها ملامح الوجه والجسد،ويتغيّر فيها شكل الوقوف والجلسات.

يكبر فيها حجم الدّمعة ويعظم فيها حجم الحزن ، يتغيّر فيها معنى الكلمات وشكلَ دوران الوقت ورائحةِ الأماكن ، لم يكن في تلك اللّحظات إمكانيةلإعادة ظبط الأموروتصحيحها ، لم يكن بوسع أحدٍ الوقوف أمام حالة الإنهياروالتصدّع ، كان كلّ شيءٍأضعفَ من قوّة الفراق.

أي كمٍّ من الأوراق كافٍ للكتابة عن هزيمة خمس سنين، هزيمةٌ ضمنَ سجلّ الهزائم وسقوطٌ يضافُ إلى جانب سجلّ السّقوط ، سنواتٌ حملت في طيّاتها ساعاتِ قلقٍ ومساءات انتظار ، سنواتٌ طويلةٌ من السّهروالآمال والأحلام الكبيرة لتصبح اليوم ضمنَ الدّفاترالتي سوف تصبح عتيقةً ذات يومٍ قريب.

قصةٌ طويلةٌ انتهت دون وداع ، ورحيلٌ باهتٌ رماديّ لم يسمحْ لنا إلقاءَ حروف الوداع وذرْفِ بعض الدّموع ،لقد هزمتْنا الخيانة دون قتال و دون أعذارٍ نقنع أنفسنا بها أنّنا لسنا المذنبين.

ثمّ مضت الأيّام تتلوها الأيّام ، لم يكن لديّ فضولٌ البحث والتقصّي، لم أكن أرغب في معرفة شيء ، كلّ حقيقةٍ سوف تظهر سوف تزيد من الأسى وتوقد نيران التّوتّر والأحزان ، بقيت طيلة هذه الايّام ساكناً ولا أعرف حتّى اليوم لهذا الأمر ايّتفسير، كلّ شيءٍ يَتِمّ ، كلّ الأمور تنتهي ، كلّ شيءٍ يُعَدّ ، و أنا ساكنٌ هنا لا أفعل شيئاً أبدا.

جاء بعد شهورٍ ذاك الهاتف في ال14 من شهر شباط أذكر أنّني حاولت أن أُظهر أنني لم أعرف للوهلة الأولى صاحبة الصّوت.

قالت :أرجوك لا تغلق الهاتف

لم أتردّد كثيرا.

لم أشأ أن أمنحها وقتاً لوضع أعذارها ومبرّراتها الواهية ، كنت أعرف أنّها تريد ذلك كي توفّر لضميرها شيئاً يسيراً من الرّاحة والهدوء.

وتمرّ شهورٌ طويلة ، حالةٌ من العزلة والتّوَهان ، يتكرّر الأمر كلّ يوم ، لا بدّ من أن يختلي الإنسان بنفسه قليلاً كي يستطيع استيعاب الأحداث والحياة ، وكي يتمكن من احتمال هذا العالم.

رنّ الهاتف بعد ذلك في ذلك اليوم مرّاتٍ عديدةٍ تَبِعَتْها العديد والعديد من الرّسائل ،كان أقواها كأنّها تلفظ فيها أنفاسها وتجهش بالبكاء، كأنّها تدرك تماماً أنها تُلقي آخر أوراقها التي ظنّتها رابحة ، كنتُ أمرّافتش بنظري الرسالة تلو الرسالة

قالت:

هل نسيتني حقا ؟

قلت:

انني لا اتذكرك

كنت كانني اراها امامي اتخيلها وهي تمسح دمعتها وتستعيد بعضا من انفاس،

اكملت :

هل ما زلت تذكر ايام الجامعة الاولى ؟

اجبت بعد صمت دام ثوان فقلت:

لا

قالت:

ولا حتى الاغاني التي كنت تهديني اياها ؟

قلت

لا

قالت:

ولا حتى لون عيوني ؟

قلت:

لا

ثم حينما شعرت باليأس والصدمة ، كأنها ارادت تدارك نفسها ، ان تحاول ان تنتقم مني بشيئا من الكلمات

قالت

إنّني أكون في أشدّ حالات الفرح حينما أراك ضعيفاً ، بل إنّني أشعر بسعادةٍ قاتلة لأنّني استطعتُ إيصالك لهذه المرحلة من الحزن.

قالت هذه الكلمات وكأنّها تنتحر

كأنها تعرّي آخر ما تبقّى في جعبتها من غدرٍ ومكر، أسقطتْ هذه الكلماتُ القناعَ الهشّ الذي اختبئتْ طويلاً خلفه.

ماتتْ يومَها تلك الفتاة ،

كنتُ أشعر أنّها قد ماتت بطريقةٍ ما ، أذكر انّني ضحكتُ وقتها وبكيْت ، هل يمكن أن يملك الإنسان هذا القدْر الكبير من الكُره ، وهل يملك القدرةَ الهائلة على قلبِ الأمورِ وتزييفها.

كنت أدرك أنّ هناكَ موعداً آخرَ، إنّها ليست النّهايةُ بالتّأكيد، بل إنّها لا تصلح لكي تكون كذلك ، هناك كلامٌ آخر ووداعٌ آخر سيكونُ لهُ تفاصيلهُ الأكثرَ إيلاماً وألماً ، أنا مَن سيضعُ تفاصيلهُ ويحدّد ملامحهُ وموعدَهُ وأحداثَه ، وداعٌ بِملامحَ أُخرى وبحديثٍ مختلف، وداعٌ سيوسّع مساحةَ الُجرح ، ويعطي للإنتقام نشوتَهُ ولذّتَهُ كلماتٌ سوف نقتل بها وِلادات الشّوق والحنين و انبعاث الأحلام من جديد.

دائماً وعلى مدار السّنين التي مضت تسلّلتْ للنّفس هواجس الفراق واحتمالاته، وتسرّبت رويداً رويداً للنّفس تاركةً أسئلتها الكثيرة ، كيف يمكن أن يكونَ شكلُ النهاية ، وصنعْتُ بخيالاتي سيناروهاتٍ كثيرةٍ وعديدة، فجاءت نهايتها مخالفةً لما كانت تملك النّفْس من مخاوف.

ما هذا الجبن الذي يجعلكِ تُنهين سنيناً خمساً من وراء السّتار بدمٍ بارد، ما الغباءُ الذي كنتُأتميّزبه إذ اعتقدت ذات دمعٍأنكِ لا تريدين الرّحيل ، غيرأنّ العيون السّود تلك يمكلها من بإمكانه أن يدفع أكثر.

لا يمُكن القوْل أنّني لم أكن أضع في حسابي خاتمةً قريبة ، ولكن لم تكن ضمن الحساباتِ هذه الخاتمة ، ولن أقول إنّني لم أكن أتوقّع يوماًولكنّه أبداً لم يكن ذاك اليوم.

لمْ تُسعفْنا الخِطَطُ التي وضعناها و لا سهرُ اللّيالي أنقذ الأحلام ولا الإحتياطات لتجنّب هذه النّهاية ، دوران الأيّام والأقدار مزّقَكلَّ أوراق ذاك الحبّ القديم ووضَع لوحده ملامح آخر الطريق.

إنّه شيءٌ مؤلمٌ حقّاً أن تشاهدَ خرابَ الأحلام و أنت في كامل قدرتك على بناء الحلم ، ومؤلمٌ أكثر أن تأتيك الطّعنةُ في وسط الطّريق بِيَد من تعوّدتَأن تُمِدّك دوْماً بالضِّمادات، ضربةٌ قاصمةٌأن تدركَأنّ ذاك الإنسان الذي شاركك عالَمك سنواتٍ عديدة كان يرتّب خطّةَ خداعٍ بالخفاء.

لم أفعلْ شيئاً حينها لم أنْهار حتّى أنّني لم أبْكِ ،أنا الذي كنت أؤجّل دائماً وقوعِ زلزالِ الوداع خوفاً من نتائجه و آثاره وحر ائِقه وكيف بقيتُ يومها عصيّ الدّمع أنا الذي كنتُ دوماً أمثّل دور الضّحيّة والبطل المعذّب.

لا أعرف ، ولكنّني حاولتُ بجدٍّ أن أتنكّر لتلك الأيام وحزنها، يجب أن لا أحتفظ طويلاً بذكرياتها التي ستتآكل رغماً عنّي ، أن أنسى تلك الأماكن التي وُلِدت على أرصفتها قصةُ خداع ، أن أُشفى قريباً من تلك التّفاصيل التي كانت تجعل حياتنا صاخبةً وملوّنة وأنّ الأيّام ستصبحَ عمّا قريب باردةً وباهتة ، أيّ إنسانٍ باستطاعته حذفُ ونسيان خمس سنواتٍ من الخداع في أيّام.

ثمّإنّه بحقٍّ شيءٌ يقود إلى الجنون كيف تضعك الأيامُأمام خياراتٍ لا فرق فيها بين المرّ والأكثرِ مرارة ، وأيُّ ذاكرةٍ تُراها قادرةٌعلى تفريغِ الخذلان وأيُّ روحٍ باستطاعتها أن تَبدأ من جديد وتعوّض عُصارتها التي فقدَتْها بانهيار صروح الحبّ.

ليس هناك أكثرُ من الحزن قادراً على أن يُنبّأك بالحقائق الصّعبة والقاسية ، وليس بأمكان سواه أن يضع أمامك قدراتك التي أغفَلَتالحياة عن عيْنيك رؤيتَها ، الحزن هو ذاك الطّيْر الذي ينقرُيدَكَ لتستيقظ من أحلامك المزعومة ثمّإنّه ليس هناك أوفى من الدّمع ، إنه الوحيد الذي يوجّه لك الصّفعة التي تحتاجها لتبدأ من جديد.

ولأجل الحقيقة أجدُ نفسي اليوم مستغرباً كيف استطاعت ذاكرتي التي احتفظَتْ بالكثير من المو اقف والمشاهد والكلام والمواعيد والخطط التي أعددناها سويّاً في الليالي الشّتائيّة ، وأحاول إرغامها حتّى تستعيدَ لي بعض المشاهد والمفردات التي قيلت في لقاءٍ بعيد فلا أستطيع.

ذاكرةٌ تعمل على مسح كلّ شيء ،المؤلم والمضحك ، والألم والأمل ، والحلم واليأس ، ذاكرةٌ تخاف من استرجاع وتخيّلأطياف الماضي ، وتشوّه أيّ شيء ، مشهدٌ كبيرٌمن الحر ائق ها هو أمامي كل شيءٍ يحترق ويذوب ، اعوامٌ طوال بشخوصها وأماكنها تحترق وتتحول أمامي إلى كومةٍ كبيرةٍ من الرماد.

أعوامٌ تمرّ ولمْ نتعلّم بعدُ من كلِّإخفاق ألّا نُحبّ ،إخفاقٌ تِلو إخفاق ولم نأخذ بعدُ من هذه الهزّات أي درسٍأو عظةٍ نحملها في جُعبتنا لتجربة حبٍّأُخرى حتّى نكونَ مستعدّين لأيّ سقوط.

لمَ لايكونُ هناكَ مظلاتٌ تقي هذا القلب كتلك المظلات التي تقينا المطر في السّاحات والشّوارع ، حتى تحميه من الأوجاع ،لِمَ لا يمتلك هذا العضو الصّغير الذي يتحمّل دوماً خلاصةَخسائرنا مخزوناًاحتياطياً من الفرح ليعوّضه ما فقد وما فقدت الروح.

لمَ ليس هناك في الحبّأية تحذيراتٍ بضرورةِ مضاعفة الحذر حينما تسقطُأمطار الهوى خوفاً من الإنزلاق وراء العاطفة القاتلة ، لقد استطاعت بمهارة قلّ نظيرها أن تهربَ من المواجهةِ الأخيرة بل إنها كانت تمتلك ذكاءً كافياً لإخفاء كل أثرٍورضوض.

حبّ،كلمةٌ صدّقتُها خمسَ سنوات ، وهمّ عشتُأقتاد منه طيلة فترة هذه العلاقة المزعومة ليظهر بعد ذلك أنّ المال هو الحقيقةُ الموجعة ، ذاك الشيء القادرُعلى سلبِنا كلّ شيء وبناءكلّ شيءٍ هذه الأيام ، القادر دون اهتمامٍ بالعادات وبالتّقاليد أن يضع قوانينه وظروفه الخاصّة.

من يملكونه أولئك الأشخاص الذين ينصّبون أنفسهم رعاةً لهذه المجتمعات لتحصيل حقوقهم ونقل أحلامهم ، من ينفقون أموال بلادهم في اختراع مهرجاناتهم وحفلاتهم على شرف جيوب المساكين والمسحوقين.

أولئك الذين يرون من خلف نو افذهم وأمام مدافئهم النّفطيّة عذابات النّاس ويتحدثّون بكل أسىً عنها دون أن يعيشوا لحظة من لحظات الخوف ، و اقعُآخر رسموه لأنفسهم بعيدٌ كلّ البعد عن و اقع هؤلاء النّاس.

فجأةً أصبح ذاك الكمّ الكبير من الحنين والأشواق الدّافئةِ مجرّدَ ذكرى عابرة وأليمة ، فجأةً تفقد الرّوح إثر خيانةٍ ماذاك البهاءَ الفريد.

حينما نخون بلا عذرٍ وبلا عذرٍ نغيب، حينما يصبح كلّ شيءٍ رمادياً و بلا لون ، كلُّ شيءٍ يأخذ حالةً من الرّكود والحياد ومن ثمّإلى الفناء والانتهاء، كلّ شيءٍ بلون الضّجر، النّفس الصّاخبة لا تنتظر شيئاً ، والبريد لا ينتظر شيئاً ،كم هو صعبٌ حقاً ومخجلٌأن تصِل بنا هذه الدنيا إلى مرحلةٍ فيها لا ننتظر شيئاً.

فراغٌكبيرٌ يختصر أيّامك ، وكأنّ كلّ تلك اللّحظات الجميلة واللّيالي الورديّة والكلمات والأشعار والوعود والعهود، و أوّل الحبّ، والقصاصة الأولى ، والدّقائق الأولى ، وأوّل الحلم ودقائق الإنتظار الطّويلة كأنّها تختفي كلُّها وتزول ، ويحلّ الصّمت ليقول كلّ شي.

كلُّ تلك الأماني والأحلام تصبح في لحظةٍ واحدةٍ مجرُّد ذكرى ، الأغاني التي جعلتْني رغم انحدارها و انحدار كلامها أحبّها ، المقهى القديم الذي سيصبح كالجحيم والنّار ، والعِطْر الشّتائيّ واللّقاءات السّرّيّة ، والاكسسوارت والأساور الفضّيّة التي نربط بها أيدينا لتُعيدنا بغفلةٍ إلى سجن الجرح ، ليأخذنا في غَمرة الحزن نحو النّسيان والذّكريات.

لماذا يرحلُ الجميع دون وداع ، لماذا لا يظلُّ لآثارهم أثر، لماذا يختفون كخيطدخان وكالبصمات على الرّمال ، لماذا لا تسمح لنا الأقدار بحضور مشهد الوداع الأخير.

أجد نفسي الآن في حالةِ كرهٍ عظيمةٍ لهذه المدينة ، كم أصبحْت أكرهها ، تتحوّلُ بداخلي إلى كومةِ فوضى وخراب ، هذه المدينة التي قتلت ولادة الشّتاء وشوّهَت انقلاب الطبيعة على الطبيعة ، وبهتت المشاعر وسَخِرَتْ من الأحلام الصّغيرة وبارَكَتْ الخوف والنّفاق ، هذه التي صفّقت للدّيكة المختالين بريشهم ، مدينةٌ يملكها المصفقون باسم الشّعب والكادحين ،

تشعر و أنت تتمشّى بين زقاق شوارعها أنّ بيوتها تبكي وزواريبها المهملة تنحُب وشتاءها شاحب الوجة والعيون ، شتاءٌ سوف يكون مملّاً هذا العام سوف يحمل في صباحاته الممطرة حقائبه الباكية ، وفي لياليه الباردة نوباتٍ عميقةٍ من الحزن والأسى ، الكثير من الأشياء المضجرة التي سوف تجعلني أكره تشرين الثاني جداً.

الشّتاءُ شهرُ الإنقلابات المفاجئة وولادة قصص الحبّ وموتها، قلَب حياتي هذه المرّة ، شهرُ الزّيارات الطّويلة يزور أوراقي هذه المرّة وبسرعه وعجالة.

إحساسٌ صعبٌ حينما تهجم عليك الصدمةُ كقطيعٍ مفترس، ومن إنسانٍ لم تترك لك الخمس سنوات فرصةَ الشكّ فيه ، لم تتركْ لك الأيام فرصة الشكّفي وفاءه ، وعذابٌ طويلٌ ستشكو منه أعماقك لأنّ الحياة شاءت أن توجّه إليك صفعةً بيد من أَلِفَت الروح نقاء سريرته.

كذبنا على أنفسنا إذن كذبةً سوف تكون نقطةً مفصليةً في هذه الحياة ، ذكرى سوف أقفُ عندها أعود أتذكّر وأتفحّص وأتعجّب كلّما حرّكت رياح السّنين أجراسَ الحنين.

مازلْتُأذكرُ جيّداً ذاك اللّقاء الذي لم أحسِب حقاًأنّه الأخير، أذكره بتفاصيله وكلامه وأذكر جيّداً ما كنت تريدينه يومها ، وكم معلقةَ سكّر أضفتِها على كوب الشاي ذاك، حتّى مرارة قهوتنا التي ما زالت على طرف لساني.

تراكِ كنتِ تعرفين أنه الأخير، تراكِ كنتِ على علمٍ فجئت فقط لتضخّي في الدّم آخرَ إبر التّخدير والسّعادة الزّائفة.

فلْتصبحْ على خيرٍإذن أيها الفرح ، وليلٌ طويلٌ سوف تشاركني فيه نوبات الحزن وحياةٌ ستكون طويلةً من الكابة.

كيف تُر اني أُشفى منك الآن، هذه المدينة تواجهني كلّ يومٍ بذكرى جديدة وتعودُ بذاكرتي كلَّ يوم إلى تلك المواعيدِ والمو اقف، تلك المقاهي الفارغة ، ذاك المقعدُ الخشبيّ في زاوية كلّيّتنا ،كوخُ القهوةِ الطيّبة ومظلةُ المطر الوحيدة.

الجسرُ الحديديّ الذي كان يربط بين الكلّيّتينبين قدري وقدرك ، شوارعها التي تحترف صناعة الحزن ، مكتبتها ، عيون صباياها ، وأحلام طلّابها المقيّدة ، فكيف ستكون إذن سهلةً وصفةُ النِّسْيان وكم سيكون حجم مرارة أوّل جرعاتها.

كنت كعبد الرّحمن الدّاخل الأمير الأمويّ ، كنت أستحضره وأشعر بغربته ومرارته ، حينما بقي آخر عمره وحيداًيخاطب نخلته المشهورة بكلّ لياقته وقيافته وسلطانه ، كأنّه بي ، أخاطب الماضي وأطيافه المخيفة والزّائفة ، شيءٌ من حزنه الأمويّكنتُأشعرُبه وبعضٌ من عنفوانه العنيد.

تأخذني الخطوات التّائهةُ إلى الأماكن التي شهدَت الأيّام البريئةَ وتنتابني رعشةٌ وحشيةٌ بالصّمت والبُكاء ، تلك الأماكن التي كانت شاهدةً وحاضرةً على نجاحاتنا وهزائمنا و أفراحِنا الخجولة ، تلك التي وُلِدت معنا وكَبُرَتْ معنا وراهقت معنا تقف بشُحوبٍ اليوم لتشهد موت الحبّ وقتلَ الورد وكلَّ شيءٍ جميل.

كلّها قلقت معنا وسافرت وطافت داخل السّرائر معنا والأسرار، وتخرّجت معنا في دفعة واحدة وحملت شهادتها العلمية ثمّ سافر بعضها للعمل وبعضها اختار أن يتزوّج بعد قصّة عاطفيّة عظيمة ، وبعضها أصبح كاتباً وألّف قصصاً عديدةً في الحبّ.

هكذا بلحظةٍ واحدةٍ يتسلّل اليأسُ للنّفس ويقيّدها بقيده الثّقيل حتّى تجد نفسك تتقبّل كلّ الهزائم الكبيرة ،و تصل في إحدى مراحل العمر بروحٍ فارغةٍ لا تحرّكها الرّياح والنكبات.

صباح الخير...

أكتبُ إليكِ من غرفتي من أمام نافذتي ، يُطلّ المطر وجهاً نعرفه ،أتذكرينذاك الصّديق القديم ، وهل تذكرين حجمَ الفرحِ الذي كان يغمرنا حين يفاجئنا كلّ شتاء.

لطالما ذكّرني المطر بأنّكِامرأةٌ زجاجيّةٌ من سلالات الماء والشّتاء ولطالما حمل دوماً رائحةَ ثيابك ، ورائحة الأرض والتّراب ، الرّائحة التي يمتزج فيها الماءُ بالنّار.

أكتب إليكِ هذه المرّة من مكان نزيف الجرح وولادته ، و أنقل إليكِ أخبار الهزائم وهروبَ الأحلام،من هنا من ذكرى الغدر الأولى للحزن ، من سحب الدّخان الذي لم تتركِ لي عادةً سواه ، وثروةٌ عظيمةٌ من القصاصات التي تسكن صندوق العزلة،الوحيدةِ من كلّ شيءٍإلّا من التّاريخ ، وأسأل نفسي الآن أين أذهبُ بكلّ الصّور التي وثّقت كلّ تلك اللحظات، وبأيّمحرقةٍ يمكن أنأتسبّب إذا قرّرت يوماًأن أحرق كلّ ذاك البريد.

رفيقةُ الأيّام الماضية...

أضع قدمي اليوم على بداية وجهةٍ لا أعرف عن معالمها شيئاً، وأحمل في يدي خارطة طريقٍلأرضٍ لم أطئها قبلُ مطلقاً، الوجهةأجهلُها والخريطةُأجد ذاكرتي عاجزةً عن فكّ شيفرتها، شيءٌواحدٌأعرفه وأسعى إليه بخوفٍ وارتجاف ،إنّه النّسيان.

وهنا أرسل رسالةً لملايين الكتّاب والأدباء الذين كتبوا في فنّ النّسيان ودبّجوا الرُّقَعَ البديعةَ والروايات العريضة، إلى أولئك الذين وضعوا وصفات للفراق وعلاج الخيبات الكبيرة وأدويةًأدبيّة وطرقاً للنّسيان.

أقول لهم أرجوكم ،أريد رويشتةً بشكلٍ مستعجلٍ تستأصل الماضي من الذّاكرة وتوقف تدفّقه و انتشاره في الجسد ، الماضي الذي يوسّع رقعة سلطته على القلب والدّماغ ، الماضي الذي لم يكن ماضياً قبل أيّام ، كان الحاضر السّعيد ، والفرصة الأخيرة

لترميم جدران الفؤاد ، أصبح ماضياً بمو اقفه وأماكنه وصوره ورسائله ، فقط أنا والّليل الهادئ الطّويل والهاتف السّاكن المهجور.

الكتابة عن الوجع وجعٌ أكبرُ، والقفزُ عن الحقيقة عند ذكر الماضي خرقٌ لقوانين الأدب ، والإيجازُ في ذكر الألم خيانةٌ للروح ، وإرغام الذّاكرة على اختصار الماضي تشويهٌ للحاضر، ذلك الخطّ الوهميّ الذي نعيشه بين الماضي والمستقبل البعيد.

واليوم ماذا تراكِ تفعلين ، وهل تواجهين صعوبةً مثلي في قتل الوقت ،أم تتدرّبين مع الأيّام على التعايش مع النّسيان ، ولماذا كان هذا الهروب الخجول ولمَ لمْ تسمحِ بلحظةِ وداعٍ تُلقين بها أعذاركِ والبوْحَ بكلمات الرّحيل الباردة.

دنيا جديدة من آذارذاك العام 2005 بدأت، و أيّارٌكئيب من هذا العام انتهت هذه الدنيا عند حدوده، كان يمكن أن نرسم

رحيلاًأجمل من هذا الرّحيل ، رحيلٌ نظلّ ننظر إليه بحنين ، يبقي على المشاعروالأيّام ، كان يمكن أن نبقي بقعةً من نورٍيضيءُ شيئاً من حاضرنا المشوّه.

ولكن يتخلّل في النّفس شعورٌ غريب شعورٌأجد نفسي سعيداً نحوه يُقنعني ببراعة أنّ هذه القصّة لم تنتهِ، ليستْ هذه هي الخاتمة وإنّني لا بدّ سوف أضعُ تفاصيلها ، أنا الذي لم أضع البداية يوماً ولم أكن أحدّد طوال الأعوام أماكنها وشخوصها ، فقط كنت أجرّب في لحظات تجلٍ طعم السّعادة.

فقط أحاول أن تظلّي معي دون يقينٍ ثابتٍ في البال كنتُأملُأن تتركَنا الدّنيا الكبيرة لشأننا أن تتجاهل قصّتنا لتعيش ، حاولْت وحاولْت أنأتحايل على الوقت ومغافلة قطار الزّمن السّريع ولكنّكِ كنتِ تضعين خطّةً للهروب وتعدّين أدوات جريمتكِ في الخفاء.

وينام الحبّأربعينَ ليلةً في العراء ، وعامٌآخرُيمضي توقيعه ويرحل ويُسقِط كلَّ الأحلام التي كانت بقامات النّخيل ، يُسقِطها كما يأتي الخريف على أوراق الشّجر.

أودّع كلّ شيء، الجسر الذي انحاز إلينا دوماً ، الذي ربطت مظلّاته بين الحلم والحلم ، بين اليد واليد وبين الأصابع والأصابع ، والذي بدأتْ على درجاته أولى الخطوات ، الجسر الذي كان ينام كلّ مساءٍ في عيوني.

الكتابةُ هي فعلُ حبسِ الرّوح لدى الماضي والرّجوع إليه ، والكتابة عن الأشخاص الذي عبروا حياتنا ومنحونا شيئاً من الفرح هو فعلُ قتلٍ لهم أو منحهم قلادةَ الخلود في الذّاكرة.

فلأيٍّ من هذه الأسباب ما أزال أكتب ، لا أعرف ، ما أعرفه أنّني أشعر و أنا أخطّ لكِ الكلمات الأولى أقترب شيئاً مامن حدود

الذّاكرة ، المنطقة المحظورة التي يجب عليَّأن أبقى بعيداً عنها بالقدر الكافي.

ويمرّ40 يوماً على انتهاء تلك الكذبة الطّويلة ، وما تزالين تشغلين الكثير من الوقت واللّحظات.

قد تحرصين على الابتعاد عن أماكنَ تفجّر أنهار الذّاكرة وعيونها ، فلماذا أحرِص أنا على الإقتراب منها ، قد تكونين الآن تحاولين انتقاء ملابسكِ وأحذيتكِ الجديدة لبَدء أيّامٍ جديدة فلماذا أصرّ أنا على ارتداء ألبسة الماضي و أحذيته.

وربّما قد تخلّصتي من الرّسائل القديمة والهدايا والمجموعة القصصية والدّواوين الشّعرية ، فلماذاأجتهد أنا في تحنيط كلّ تلك الشؤون ، فرقٌ كبيرٌ بيننا يا سيّدتي ، فلقد حاولتُ جاهداً تجميل الخراب الذي أخفيه والإبقاء على تفاصيل ذاك الماضي الجميل.

أنا جزءٌ من الماضي بتركيبه الغريب والمختلف ،أنا جزءٌ من صوته وحنجرته ، جزءٌ من حُرُماته ومقدّساته ، مكوّنٌ رئيسٌ من لغته ومفرداته وكلامِه القديم ، فكيف أجحَده الآن أنا جزءٌ من الأحلام فكيف أتنكّر لرائحتها اليوم ، أنا متلصقٌ كالشّجر بكلّ ما تخافين منه.

ويمكنني أن أقول اليوم أن كلّ ما خطَّتْه أيادي و أنامل الأدباء عن اللّقاء والرّجوع والنّدم والعودة كانشيئاً من الخيال والجنون ، كيف يعود من اختار بإرادته أن يرحل ، من رحل بلا وداعٍ وأراد بكامل وعيه أن يشوّه كلّ شيء ،ووأد بلحظاتٍأعواماً من الحبّ.

وليس صعباً علينا أن ننسى ، هناك وصفات كثيرة يمكن أن نجرّب بعضاً منها أوأن نتدرّب مع الوقت عليها ، للابتعاد قليلاً عن الذّاكرة ومصائدها ، ولكنّ الصّعب هو قدرتنا على الإحتفاظ بالحقد ، وأن نبقي لتلك الخيبات مساحةً في الأعماق ، وأن يظلّ الفتيلُ جاهزاً للإشتعال في حالة تسلّلَ للنّفس هاجسَ التسامح .

تتدافع الأيّام كشلّالٍ عظيم ، ولكنّ الغريب أنّ مساحة الجرح تكبُر كلّ يوم ويمارس كالعادةِ طقوسَه داخل الأوردةِ والشرايين ، أشهرٌ كثيرةٌ وكأنّكِ ما تزالين هنا ، أستطيع الآن أن أغمض عينيّ و أتخيّل لبستك الأخيرة بكلأزرارها وألوانها ، وكلماتكِ الأخيرة ، ما أزال أصحو كلَّ يوم و أنتقي قميصاً جديداً وبنطالاً جديداً كأنّي على موعدٍ معكِ قريب.

ما أخبارك الآن ؟

أشاركُكِ الرّأي أنّه شتاءٌ قاسٍ هذا العام ، لن تخفّف من وطأته وشدّته أفلام هوليود التي تفضلينها ، ولا روايات غادة السّمان وأحلام مستغانمي.

صباح الخير..

أكتبُ إليكِ أسطري الأولى في حين تتجوّل عيوني مر اقبةً مشهد سقوط الثّلج و انتشاره بين البساتين ، تسقط فجأةً هالةٌ من الصّمت والشّرود الطّويل ورغبةٌ في إحراق كلّ شيء.

صباح الخير أيّتها السّيدة الغائبة ، ما الذي تفضّلين البدء به في هذه الصباحات القاسية الجليديّة ، هل ما تزالين تقضين الكثير من الوقت أمام التّلفاز ، أمّا أنا فأقضِ الكثير من الوقت أمام مسرح الذّاكرة ، كيف هي الأجواء عندكِ، وهل تناولتي الوجبة الصّباحيّة وهل اشتريتِ كالعادة معطفاً جديدا.

يقولون في التلفاز أنّ الأجواء ستصبح شديدة البرودة في ساعات اللّيل ، فلا تخرجي فأنتِ سريعة المرض كما أذكر ، وما الذي تستعينين عليه في مساءات كانون الثّاني الضجرة ، ولماذا أشعر أنّك هنا في هذا الشّتاء أمام مدفئتي ، في الموسيقى والأغطية الصّوفيّة ، في انعكاس ضوء النّاروصوت الشّجر والرّيح.

إنّها الأجواء الباردةُ الماطرةُ القادرةُ بشكلٍ خارقٍ على إعادتي لأيّامٍ غدت بعيدةً جداً، توقظ في نفسي كلّ ذكرى نائمة ، وتضع أمام عينيّ كلّ صور الماضي البعيد ، يعيدني صوت المطر ورائحةُ الأرض إلى أيّام الحبّ الأولى يزيل عنه الغطاء الذي يختبىء خلفَه ويظهرُلي بكلّ شخوصه ومعالمه وأسراره.

الشّتاء فصلُ الذّكريات والبكاء ، فصلٌ نعود فيه كلّنا إلى أيّامنا الأولى الجميلة ، يفضح كلّ ما نخفيه في النّفس ، ينفض أجسادنا المتعبة من غبار الخيبات والآلام ، له القدرة السّحرية على إبكاءنا ، يعرّي عالمنا السّريّ الحزين ، وينقل منّا عدوى الحنين ،إنّه الوقت الذي يبدأ فيه نزيف الذّاكرة بالتدفّق.

يتسلّل الصّقيع لداخلنا وتهطل الأمطار في عيوننا ،إنّه وقت نزيف الأصابع والشّفاه والكلمات ،تصيبني حالةٌ من التّوتّر مع كلّ شيء ، أصبح جزءاً من تفاصيل الضوء والأحجار، أصبح جزءاً من تفاصيل الشوارع وملامح برك الماء والرّيح والعابرين ، حالةٌ

من الإنصهار والإندماج مع الأجزاء والتّفاصيل ، وحاجةٌ لقول كلّ شيء والسّكوت عن كلّ شيء.

العاشر من نيسانٍ بتوقيتِ الحزن والسّهر، العاشر من نيسان أي خمسةُأشهرٍ من تاريخ الوداع ، يأتي نيسانُ هذه المرّة عجولاً خجولاً شيئاً ما ، وكأنّ لياليه الخالية من الفرح فيها شيئاً من حزننا وكبريائنا.

نيسان شهرُ ولادة كلّ شيء والإنقلاب على الطّبيعة والصّقيع ، بداية شهر الورد وتجديد الأمل ، يزورني هذا العام خالي الوِفاض والجيوب إلا من بعض الذّكريات النّيسانيّة ِالباهتةِ ويرحل ... ها هو يرحل.

سيّدتي الغائبة قد يشتري لكِ المالُ أسبابَ التّسلية ، لكنه قد لا يكون بإمكانه شراءُ الفرح ، قد يستطيع المال أن ينسيكِ الذّكريات القديمة لكنّه لن يستطيع إفراغه من أعماقك.

ذوو الأصل الأصيل ، مَن تربّى على الأخلاق ونكران الذّات أولئك القلّةُ الذين ما غيّرتهم رياحُ التّغيير والمو اقف ، ولا استطاعت إزاحَتَهم نحو الإبتذال ؛ لا تزيدهم الأيّام كلما أرادت اقتلاعَهم سوى تشبّثاً بالأرض ،أمّاالوضيعون تُظهِرُ معادنَهم الأيّامُ وتزيدهم عرياً و انحلالاً.

ويستمرّ نهر الحياة بالتدفّق والجريان ، ترسم الأقدار لكلٍ منّا ملامح الطّريق ، الدّنيا التي لم تعطنا شيئاًإلّا بقدر ما أخذت بقدره أشياء.

أنتِ تهمّين بوضع طفلك الاول كما علمت ، وأخي محمّد يختار طريقه ويختارشريكته ويتزوّج ، يأخذ كتبه ورو اياته ويترك غرفته خلفَه فارغة ،و أخي حمزة يسافر لإكمال دراسته في خارج البلاد ، والعائلةُ تودّع للمرّةِ الأولى فرداً من أفرادها ، كلّ شيءٍ يتغيّر ويأخذ مساره المختلف.

ثم يرحلُ جدّي ..رحمه الله

ولستُ أعرفُ لماذا انتابني شعورُ الحاجة المفاجئ بنقل خبرِ وفاتهإليكِ، لا أعرف ،إلّا أنّني وجدتُ نفسي أكتب إليكِ، ولستُ أعرف إلى الآن تفسيراً يضع حدوداً لتساؤلاتي، ربّما لأنّني اعتقدتُأنكِ قد أحبَبْتِهِ يوماً لكثرةِ ما داربيننا من أحاديثَ وكلامٍ عنه وعن صفاته ومناقبه ،عامٌ على رحيلكِ يرحل بعدها أبو سُلطان ، هكذا كما يرحل البسطاء في كلّ هذا العالم بلا ضجّة أو صخب دون أن يخلّفوا ورائهم غيروصاياهم وكلامهم.

رحل جدّي تاركاً كلّ شيءٍخلفَه بحالةِ صمتٍ وذُهول ،انا ، جميع القصاصات الورقية ،ملاحظاتُه مواعيده الطبية ، مذكراتُه المنثورة في كل روايةٍ وكتاب ، وعلى أعلى رأس صفحات الجرائد اليوميّة ، وفِراءهِ الشتويّة.

بل إنّني لا أبالغ ولا أكاد أذكر نصف الحقيقة إن قلتُأنّ كلّ الأشياءِ التي كانت تمتلئ بها حياتنا ذهبتْ معهُوغابت ، كان جميلاً في زمنٍ يمتلئ بالقبح ، وكبيراً في زمن الأقزام.

كان قادراًذلك الرجل رغم تعليمه المبتدئ ومواهبه البسيطة أن يمتلك هالةً خارقةً وحضوراً عظيما، كان يتملك حكمةً استطاع دوماً من خلالها أن يجمع الجميع حولَه ، كان قادراً دوماًأبو سلطان على الدّخول إلى أعماق أعماقي ، وكشف الأسرار و انتشالي من التّعثّروتخفيف حدّة سقوطي.

كان يملك شيئاً من ملامح وصبر الأجيال القديمة ، بسيطاًكبيئته ومعقّداً كالحياة ، كان حديثُ رحيلِه أمراً غيّر كلّ شيء، حادثاً سوف نقف عند ذكراه كلّ عام ، بالنّسبة لي على الأقل ، كان ذلك الرّجل أكثررجلٍ كنت أكنّ له تعظيماً واحتراماً.

لقد كان بنظري آخر الرّجال المحترمين ، ولعلّ خوفي كلّ الخوف لم يكن برحيله وفقده بقدر ما كان على عدم قدرتي على إكمال الطّريق دون وجوده.

ولكنّه ما يزال هنا ، جدّي ما يزال هنا ، كلّ شيءٍ يدلّني ويقودني إليه ، رائحةُ ثيابِه ومقولاتِه الأخيرة ، في الفرح أراه يرقصُ من أجلنا ، وفي المحن أراه صامتاً بكلّ ما يمتلك الحزنُ من وَقار، إنه هناك خلف طابورٍطويلٍ من النّاس يصفّق لي و أنا أحصد شهادةَ النّجاح وأوّل من يواسيني أذا أصابت خطو اتي الفشل.

كلّما شعرتُأنّني قد نسيته ما تلبث قصّة ما أن تعيدني إليه ، ضحكةٌ على شفاه قريبٍ تشبه ضحكته ، ثوبأًيرتديته غريبٌ يشبه ثوباً كان يرتديه ، خطوات عجوزٍتشبه خطو اتِه الثّقيلة.

وقد أكون اليوم وصلت آخر الطّريق وحصدت دون وجوده لحظاتِ و أيّام التّعب والشّقاء إلّاأنّ الرّحلةَ كانت ستكون

بحضورهِأبهى وأجلّ ، سيظلّ ذاك الرّجل هنا ، سيظلّ مكانه ذات المكان في كلّ الزّوايا وصدر البيت ، وستظلّ حكايتُه وتاريَخه قنديلاً ينيرليَ الطّريق كلّما أصابني التّيه والوحشة.

اجتزتُ كلّيّةَ الآداب في ذلك اليوم صباح الخميس من أوّل أيّار ،المكان الذي طُفنا حَولَه وفيه أربعةأعوامٍ كاملة ، حيث محراب وفضاءات المعرفة وموسيقى أصوات الحروف، ورنين الكلمات وعوالم النّور ، حيث ازدحام الأقدام على أبواب القاعات والمكتبات ومدرّجات العلم العظيمة وحيث يتجوّل الشّجروالماء بين كلّ هذا كما تتجوّل الأحلام والعصافير.

هنا في هذا المكان البهيّ من الأرض حيث مسرح الأحلام ومنطلق الأفكار، هنا تحوّلت الطّفولةُ العابثةُ والمراهقةُ الشقيةُإلى شبابٍ واعٍ، وتحوّلَت الصّحراءُإلى جناحٍ جميلأخضروالرّوتين اليوميّإلى تجاربَ مجنونةٍ وخطيرة، هنا في هذه الأرض الغنيّة بماء العشق الرُّطب وأطنان الوثائقِ والمكاتيب.

تاريخُ ذلك اليوم من التّواريخ التي تظلّ حاضرةً في البال رغمَ كثرةِ الأحداث الفائضةِ التي حنَّطَت جثث القصص القديمة واللّحظات الموؤودة.

يومٌ مشمسٌ ودافئ، أذكر أنني جِئت لأحضر مناقشةَ تخرّج صديقٍ قريب ، تجاوزت مدخل الكلّيّة الرّئيس بخطواتٍ سريعة ، وحينما أصبحتُ عندَ ساحة الكلّيّة في منتصف ميدان السّاعة الرّخامية ، وضعت نظري على أوّل الطّريق وإذ بك تجتازين ذلك السّور الذي يحيط بالكلّيّة القريبة ،في القرب من كلّيّة الفنون ،أدقّق قليلا ثمّأرفع بصري متسائلاً بقلقٍ هل تكونين أنتي ؟

وكيف أتوهُ عنك أنا الذي أستطيع الآن أن أغمض عيني وأعدّ لك أزرار عباءاتكِ المختلفة وألوان الشّالات ، أستطيع الآن أن أتخيّل كلّ المو اقف الصّعبة التي حدثت لنا والمُحرجة ، أستطيع وصف المو اقف الشّتائية الماطرة وكلّ العبارات والحوارات وكمّيّة الحزن النّائم في العيون ،وحجم الأحلام ،أستطيع تخيّل ملامحكِ الهادئة البسيطة كلّها وضحكتكِ المختلفة ، أستطيع وصف كلّ جزءٍ من تلك الأماكن التي أخذناها معنا في مخيّلتنا إلى كلّ مكان.

نعم إنّها أنتِ بكامل بهاءكِ و إناقتك ، بلباسك الأسود الذي يلفّ وسطه ذاك الحزام الأخضر الأخّاذ ، تقترب الخطوات شيئاً فشيئا ، أكاد أسمع وقْعَ الخطوة والخطوة ،لم يكن بيني وبينكِ سوى بضعُ أمتارٍ قليلة ، حتى أصبح كلٌ منّا أمام الآخر.

آخر اللّحظات التي وضَعَنا فيها القدر أمام أنفسنا ، لم يكن لديكِ وقتها الجرأة الكافية للنّظر في وجهي ، كانت نظراتكِ تتشبّث بالأرض ، ثم في لحظةٍ واحدة أصبحتِ خلفي وأصبحت

خلفك ، لم أسمحْ لنفسي بالالتفات رغم نداءات القلب الهشّ ورغم العاطفة الضعيفة ،ورغم إدمان روحي على التنازلات ، الإنسان منّا بحاجةٍلوقتٍ طويل كي يستوعب مشهدا كهذا.

لم تكن وقفتي ومظهري حقيقية وقتها، كنت احاول ان اتقمص وجها مختلفا ودورا اخر ، لم تكن الكلمات لي كنت استعير حتى الصوت والشفاه ، كذبت ان قلت انني كنت قويا وقتها وغير ابه ، لقد بكيت حقا ، كل شيئا بداخلي كان يبكي وينوح ، كان شعورا العجز قاسا جدا ، شيئا اشبه بالوقوف متهرئا وعارا امام الريح.

كنتُ أريدُ يومَها توثيق تلك اللّحظة بالصّمت فقط ، أما أنت فمشيتِ مسرعةً نحو أيّ مكانٍ قريبٍ تُخفين فيه دموعكِ المنهالةِ بسخاء ، رأيتكِ بعدها في مكانٍ بعيد ،

رأيتكِ بعدها تبكين .كان ذلك اللّقاء هو الأوّل من بعد الفراق، حدّدتْ مسارَه الصّدفةُ والقدرُ ،عدتُ يومَها وأنا أحمل كامِلَ لياقة الخيبة والخسارةكلّ ما هو حولي يتأرجح ويهتزّ.

كنت أعرف حينها أنّنا نودّع ملامح الصّباح ورونق الشّباب النّضر، وأنّ كلّ الكلام الذي دارفي حوارالنّفس مع النّفس في ذاك اللّقاء المفاجئالأخيرلن يكون حتماًآخر الكلام ، وأنّ حالةَ التّفكير المرهِقة لن تتوقف حتى مُضيّ وقتٍ طويل ، وأنَّ الدموعَ التي كانت تختبئُ في العيون ستتفجر في موعدٍ لاحق وأنّ الملامحَ المتعبةَ ستشي بصاحبها وتفضحهاالعبرة المفاجِأة.

ماتَتْ تلك العلاقة الطّيّبة ميتةً متواضعةً في ذلك التّاريخ ، ميتةٌ لم تكن على قدر الطّموحات والتّوقعات ، ميتةٌ طبيعيةٌ دون صراخ ،عدت يومها وحيداً ، صوتي الوحيد يخيفني كنت أسمع صوت الماضي من كلّ الجو انب والزّو ايا ، كانت الخطوات ثقيلةً جداً و أقدامي كانت تتباطئ وتتشبّثُ بالطّريق.

عدت خائفا أحمل ظّلي المقتول ، وكنت بلا وعيٍ أغوصُ في عتمة الخيال و الفراغ كقافلةٍ كاملةٍ غاصت كلّها في الرّمال ، كسفينةٍ أضاعتّها الريح فرستْ في مكانٍ بعيد، كجنديإ مهزومٍ عاد مطأطأ الرأس بعد أن فقد الرّفاق ، كصورةٍ قديمةٍ للاماكنِ التي

أصبحتْ مهجورةً وفارغة ، كالدّفاتر الخالية من أرقام وعناوين الصّحاب ، كجرحٍ لا ينشف الدم فيه مع الأيّام.

بي شيءٌ من حزن أقواس المضافات العتيقة و شيءٌ من حزن شوارع القرى البدائيّة النائية وفي عيني دموع القمح والبيادر الخالية يسكنني جزءٌمن ذكريات أثواب الآباءِ والجدات ، كلّ شيءٍ ملكناه أصبح الآن ملك الأمس كل شيءٍ ضاع كأحلام الصّغار .

عرفتُ بعد ذلك بأيّام من صديقةٍ مقربةٍ لكِأنكِ دُعِيتي لذلك الموعد، ثمّ عرفتِ بطريقتكِ الماكرة أنّني من المدعوّين ، و أنّكِ قد تبعتِ خطاي ربَّما للحديث معي ولرؤيتي.

ولأجْل الإنصاف يمُكن القول أنّ كلّ شيءٍ منذ لحظات النّهاية الأولى قد تشوّه واحترق ، ولكنّكِ طوال تلك السّنين ورغماً عنّي

بقيتي حيّةً في مياه الذاّكرة ، تتنفّسين من هوائي وتقتاتين على جراحي ، وتعيشين في كل شيءٍ حولي ،

كنت بحمْق أتركُ لكِ مساحة للّهو واللّعب وممارسة عاداتكِ اليوميّة ، وكنتُ بعد كلّ نزوةٍأو محنةٍأكتب إليكِ على الرّغم من انقطاع وغيابِ ساعي البريد وفراغ صندوق البريد ، إلّاأنّني شعرتُ في هذا الصّدام الأخيرأنّكِ صرتِ بالنّسبة لعقلي وأصابعي وكلّ حواسي من ضمن قائمةٍ طويلةٍ لكلّ شيءٍ مات.

لم أشأ أن أَبكي ،أنا الذي كنت أنزف من أعصابي بدلاً من دموعي ، كنتأدفع كلّ مرّةٍ فاتورةَ التَّجارب أنفاساً من العمر القصير كنتُأكتب دائما بأوراقٍ مائيةٍ و أقلامٍ ملوّنةٍ ولكنّني كنت أرسم أحرفي دائما بالدّم.

فلماذا ؟؟

لماذا تبحثين عني بعد مضيّ هذي السنين ، كأمٍّ سهرانةٍ على شباكها الخشبيّ بانتظار ابنها المهاجر، كالمسافر الذي يتأمّل النّجم المسافر ويفكّر بالوطن، كالعاشق الذي يسهر كل يومٍ ليكتب رسالة حبٍ لحبيبته ويعيش على وهمٍضئيل.

لماذا تهربين ورائي إلى كلّ الحدود والموانئ بالحقائب والمصائب ورسائل الماضي الكئيب، بل لعلّ السّؤال الذي يحيّرني أكثر لِمَ تجبرين نفسكِعلى الهبوط إلى أعماق السّحيق السّحيق،لماذا تضعين كبريائِكِ رهينةً بين يديّأفعل به ماأريد.

لماذا لم تحتفظي بآخر ما تبقّى من قوّة وآخر ما تبقّى لك في مخيلتي من عناد ، لماذا تساقطتي جزءاً واحداً كسدٍّ كان يحبس الأمواج العملاقة سنينَ طوال فانهار فجأةًأمام موجةٍ صغيرةٍ وبعض الأمطار ، لِمَ تنازلتِ عن كلّشيءٍ مرّةً واحدةً، لماذا تعرّيتيأمامي من كلّ قناعٍ كنتِ تخفين خلفَهُ دموعكِ و انكسارك.

شعرتُ حينها أنّها الجولة الاخيرة في معركتنا الطّويلة ، و أنّه لا مجال أبداً للتّراخي والعواطف والخطأ، لا بدّ من حسم كل شيء.

حاولتِ تذكيري بكل شيء ورميْتِ كل أور اقكِ الخاسرة التي راهنتِ عليهاواعرف جازماًأنكِ الآن أيقنتأنّ هالةَ القوّة والصّلابة التي ظننتيأنّها تحيط بكِ قد زالت وأنّ الضَّعف والهشاشة التي كانت تتملّكني قد زالت أيضاً وأنّ الرّ ابح أنا.

إنّها مفارقاتُ الأيام ودوران المّن ، يجعل منك اليوم ألدّ الأعداء و أقواهم ، وصاحبة القنديل والسيف.

ما الذي فعل بنا كلُّ ذلك؟

الجواب إنّه الحبّ ببساطة ، إنّه ذلك الشيء القادر على بناء كلّ شيءٍ فينا وهدمه ، إنّه ذاك الشّعاع الذي يجول بكامل حرّيّته داخل الدّم والعروق فلا يتركنا ننعُم بشيءٍ يسيرٍ من السّكينة والهدوء ، هو كلُّ شيءٍ برّاقٌ ولامع ، وكلُّ شيءٍ باهتٌ وحزين الشيء وضدّه ، النّار التي تضيء والنّار التي تحرق.

تُصبح أرواحنا جاهزةً لاختبار أيّ شيءٍ والاندفاع نحو هتتزوّد أجسادنا بطاقةٍ كبيرةٍ وقدرةٍ كافيةٍ على المغامرة والجرأة ، نتصالح من الدنيا كلّها نسعدُ لسعادة النّاس ونتألّم لدمعةِ طفلٍ صغير، نُبادرونُحجم ونملك ولا نخاف على خسارة شيء ، كلّ شيءٍ في الحبّ يقبل الخسارة وقابل للانهزام ، تكبر أحلامنا فجأة، تتخطّى بلا عقلٍ الو اقعَ الضيّق ، وتضعنا الأيّام أمام مو اقفٍظننّا دوما أنّها لن تحدث.

ومن هنا ينطلق سؤال منطقي ، تُرى كم من عاشقٍ خذلتْ هذه الجامعة وكم من صدفةٍ جمعتْ ووعهد ووعد قطعتْ بعد رحيلنا

، وكم من قصّة حبٍّ سترعاها تلك الأماكن التي رعت قصّتنا تلك ، وهل ترى كنّا قصّتها الأولى على قائمة الحبّ السّوداء أم ضمن قائمةٍ طويلةٍ من قصص الخيبات والخذلان.

لِمَ جمعت هذه المدينة أقدارَنا فالتقينا ، ولماذا قدّرتْأن نفترق ، ولمَ قرّرت أن تبتعد طرقُنا فتُهنا في البلاد ، تمنحك شيئاً ضئيلاً من السّعادة ثم تسلبك ما منحت بغفلةٍ وبغدر.

لثوانٍ قليلةٍ و أنا أعبرشوارع مدينتنا يحيط حولي الشّك كجيشٍ عظيم ،الشّكفي نفسي وفي كل شيءٍ ظاهرٍحولي.

هل حقاً مررنا من هنا ؟

هل حقاً كنّا يوماً هنا ؟

أيصلُ الأمر إلى مرحلة الشك في كلّ شيء؟

في أنّكِ كنتي حقيقةًأو أنّكِ كنتِ ذات يومٍ وهماً عظيماً.

ثمّ أيعقل أن أمرَّ من أمامِ مكانٍ جلسنا فيه ، وحين لوهلةٍأرفع بصري لأتأمّله تفاجئني تلك الأبنيةُ الإسمنتيةُ الشاهقةُ التي بُنِيَت مكانه لِتَهدم الذّكريات الباقية في النّفس والرّوح حجارةً

صماءَ أخذت مكان الصّور والضّحكات والبسمات ، وأبنيةٌ رخاميةٌ سيغطي بناءَها العصريّ تلك الحوارات الغرامية البريئة.

يمكن اعتبار كثيرٌ من تفاصيل قصصنا الحزينة غير صالحةً للنّشروالتّفسيرإلّا أنّنا قد نبوح بجزءٍ كبيرٍمنها للكشف عن حجم البشاعة التي يقترفها أحدنا بحقّ الآخر ، نصل إلى مسافة اللّاعودة مع الألم آملاًأن نفقده حدّته، حتّى نعتاد مع تكرار الأيام على وخز اته الباردة وتكرار نوباته.

كنت أبحثُفيها عن وطنٍأرتاح فيه وعن حضنٍ آمن فيه على نفسي ، وعن عيونٍ اخبّئ فيها حلماً بعيداً ، كنتُأنظردوما إلى عينيهافأجد فيها انعكاس وجهي ونفسي ، كأنها شمسٌ تعكس الضّوء والنّور.

في الحقيقة نحن لا نكبر بمرور الأيام والسّنوات وحدها ، ليس الزّمنُ وحدهُ القادرُ على جعلنا نبدو كباراًليس ذلك وحدَه ، قد

يكون للتّجاربِ والمو اقفِ والنّكبات والخيبات والنّدم دورٌكبيرٌفي ذلك .

نكبرحينما نصاب بخيبة الظّن نكبرجدّا حينما يرحل لنا شخصٌ عزيز ، قد نشيخ جدّا حينما نكون وحيدين في طريق الحلم الطّويل بلا صدرٍولا كَتِف.

قد تكونُ الرِحلةُ نحو الحلم تلك الرّحلة الشاقةُ المليئةُ بلحظات اليأس والتّعب والمليئةُ بالعُذوبة والتلذّذ قادرةً على جعلنا أقوياء ومنْحنا الصّلابة لمواجهة كلّ سوداويّة هذا العالم ، إلّاأنّها قد تجعلنا كباراً في مقاييس الأعماروالزّمن.

قد لا تجعلنا السّنين كباراً وقد لا يكون بمقدورها دوماً النَّيل من شبابنا وملامحنا وخيالاتنا ، و لا يمكن لها فعل ذلك بقدْر ما تستطيع أن تفعل بنا ذلك التجاربُ والمو اقف ، نحن نكبر بالفراق والعلاقات ومرور النّاس نحن نكبر حينما يصغر حجم الحلم ويتأرجحُ أمامنا الأمل.

كلّ ذلك قادرُكما الزّمان على النّيل من ملامحنا وجلودنا وسمْعنا وبصرِنا ، لذا ليستِ الأيّام وحدَها كفيلة بجعلنا عجائز، كلّ من يحاول أحباطك كلّ من يحاول التّشكيك فيك وبقدرتك.

تشقّقات الجلد والوَجه ، التّعب الواضح على العيون ، قد يكونُ سببُه القلق والتُّوتّر واللّيل وفراق الأحبّة وبعد الأصدقاء والهزيمة والإنتظار ، الأمر أشبه بمعطفٍ أسود تختبئُ خلفَه أعضاءُنا وقلوبُنا التي أنهْكها التّعب.

لقد ضيّعْنا الكثير من وقتنا وقوّتنا حينما وضعنا كل شيءٍ في يد الشّخص الخطأ، حينما تواجدنا يوماً في المكان الخطأ، حينماقايض من أحببناه كلّ ما قدّمنا له في أوّل مقايضة رخيصة.

نحن من أضعْنا أنْفسَنا وخسرناها حينما استأمنّا عليها من هو أقلُّ منها، نحن خسرنا روحنا واستنفذنا كلّ عطاءنا مع أولئك الذين كانوا فقط يعبثون بأثمن ما كنّا نملك .نحن اليوم بدونهم

في المقدّمة ، فهنيئاً لهم جحيمُ الضّمير ومبروكٌ عليهم رهانُهمُ الخاسر.

أواجهُ اليرموكَ اليوم بكلّ مشاعر اللّهفةِ والحنين ، إنّها رائحةُ الكرْه والأسى ، حيث خيالاتِ البدايات وانبعاثها وتجدّد الماضي ، إنّها المكان الذي لا يموت الماضي فيه ولا ينتهي ، ساحة المعارك أمام الذّكريات والزّمن.

المكان الذي تتغيّر فيه مساحة صوتي وملامح وجهي وطريقةُ كتاباتي ، المكان الذي يتجلّى فيه بوضوح شكلُ الفراغ والوحدة وزِحام الوجوه والأقدام والقاعات المليئة والفارغة.

كلُّ شيءٍ مررتُ فيه هنا لا يرحل أو إنّه يغادر ثمّ يعود ، على الرّغم من أبواب ونوافذ الأيام الماضية المغلقة ، على الرّغم من المسافات الطّويلة التي قطعناها للإبتعاد عن أماكن الحبّ القديم.

وعلى الرّغم من الوجوه التي سمحنا لها بدخول عوالمنا رغبةً بمسح ملامح الوجوه الأولى ، على الرّغم من كلّ شيءٍ نعود بلحظة تجلٍّ خاطئةٍ لذاك العالم ، تعود بنا الرّسائل الورقيّة والنّو افذ العتيقة لتلك المشاوير.

لمْ أكن أدرك أنّ الماضي الذي كنتُ أخافُه يعيش معي في مدن الهجرة والضّباب ، يعيش معي في كلّ مكان، وأنّ هذا الرّجوع لن يغيّر شيئا.

الماضي يعيش هنا وهناك في كلّ شيء ، فيأعماقنا وأحلامِنا وغرفِنا ،كما غِبْت أنا يغيب ،ويعودُ كما عدتُذاتَ مساءٍ باردٍمن سفرٍ طويل ، إنّه الخوف الذي يؤثّث الحاضر ويضيّق حجم نو افذ وممرّات المستقبل والفرح.

حالةٌ من العناق مع الألم والحبّ ، والتقاءِ المودّة والحزْن ، واختلاط الشّغف والحماس بالإحباط والعجز ، واجتماع

الطّمأنينة والسّكينة بالخوف وبالتّردّد في القلب ، تجتمع بلحظةٍ واحدةٍكلّ الأضداد، وتسير بناإلى حيث المجهول والسّواد ، كأنّنا ننثر رماد الماضي أمام الرّيح ونشيّع الحبّ والقلب إلى المثوى الأخير.